محتويات سورة التوبة

لسورة التوبة

نزلت سورة براءة قبل وفاة رسول الله ﷺ بخمسة عشر شهرًا، وهي السورة التاسعة، وآياتُها تسع وعشرون ومائة، أو وثلاثون ومائة عند الجمهور، وهي مدنية تعني بجانب التشريع، وسورة براءة إعداد للأمة؛ التي ستحمل الرسالة بعد وفاة قائدها.

لم يكتب الصحابة ولا من بعدهم البسملة في أولها؛ لأنها لم تنْزل معها، كما نزلت مع غيرها من السور.

وقيل: رعاية لمن كان يقول: أنها مع الأنفال سورة واحدة. والمشهور: أنه لنزولها بالسيف ونبذ العهود.

وقد ورد لها أسماء كثيرة، هي صفات لأهم ما اشتملت عليه؛ فمنها :

سورة الفاضحة؛ لما فضحته من سرائر المنافقين، وإنبائهم بما في قلوبهم من الكفر وسوء النيات، وهذا الاسم روي عن عمر وابن عباس - رضي الله عنهما- ومنها: المنقرة والمعبرة؛ لتنقيرها وتعبيرها عما في القلوب.

وقد نزل معظمها بعد غزوة تبوك، وهي آخر غزواته ﷺ، وفي حال الاستعداد لها في زمن العسرة، والخروج إليها في القيظ، وفي أثنائها ظهر من آيات نفاق المنافقين ما كان خفيًا من قبل.

وقد صرَّحوا بأن أولها نزل سنة تسع بعد فتح مكة، فأرسل النبي ﷺ عليًّا رضي الله عنه ؛ ليقرأها على المشركين في الموسم[1].

صلتها بسورة الأنفال :

التناسب بينها وبين ما قبلها، فإنه أظهر من التناسب بين سائر السور بعضها مع بعض؛ فهي كالتتمّة لسورة الأنفال في معظم ما فيها من أصول الدين وفروعه، والسنن الإلهية والتشريع، وجُل ذلك في أحكام القتال وما يتعلق به، والاستعداد له، وأسباب النصر فيه وغير ذلك.

---

(١) المرجع السابق ٣/٣٥٧ .

فما بُدئ في الأولى أُتم في الثانية. ولولا أن أمر القرآن في سوره ومقاديرها موقوف على النص؛ لكان هذا مؤيدًا - من جهة المعاني - لمن قال إنّهما سورة واحدة. كما يؤيده من ناحية ترتيب السور بحسب طولها وقصرها، وتوالي السبع الطوال منها.

وأمثلة ذلك :

١- إن العهود ذكرت في سورة الأنفال، وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الكلام فيها، ولا سيما نبذها الذي قيد في الأولى بخوف خيانة الأعداء.

٢- تفصيل الكلام في قتال المشركين وأهل الكتاب في كل منهما.

٣- ذكر في الأولى: صد المشركين عن المسجد الحرام، وأنّهم ليسوا بأوليائه ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾[الأنفال :٣٤] أي: من المؤمنين، وجاء في الثانية: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[التوبة: ١٧].

٤- ذكر في الأولى: صفات المؤمنين الكاملين، وذكر بعد ذلك بعض صفات الكافرين، ثم في آخرها حكم الولاية بين كل من الفريقين، وجاء في الثانية مثل هذا في مواضع أيضًا.

٥- ذكر في الأولى: الترغيب في إنفاق المال في سبيل الله، وجاء مثل هذا الترغيب بأبلغ من ذلك وأوسع في الثانية. وذكر في الأولى مصارف الغنائم من هذه الأموال، وفي الثانية مصارف الصدقات.

٦- ورد ذكر المنافقين والذين في قلوبهم مرض في الأولى في آية واحدة [١]، وفي الثانية فصل أوسع تفصيل حتى كانت أجدر بأن تسمى سورة المنافقين من سورة: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾[المنافقون: ١]، لو كانت تسمية السورة بالرأي [٢].

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

(٢) تفسير المنار.

النداء الأول
التحذير من صفات الفاسقين

يقول الله - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ وإِخْوَانُكُمْ وأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ومَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ورَسُولِهِ وجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ واللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٣ ، ٢٤].

معاني المفردات والتراكيب :

﴿ إِخْوَانَكُمْ ﴾ : جمع أخ، في النسب، أو الدين.

﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ : جمع وليّ، وهو الناصر والمعين.

﴿ الظَّالِمُونَ ﴾ : المشركون ، كما قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ : أي: اكتسبتموها بتعب ومشقة.

﴿ كَسَادَهَا ﴾ : رخصها ونقصها وعدم رواجها.

﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ أي: انتظروا ما يحل بكم.

﴿ الفَاسِقِينَ ﴾ أي: الخارجين على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ المبارزين بها [1].

سبب نبذ العهود مع المشركين :

لما أعلن الله - تعالى - براءته وبراءة رسوله من المشركين وآذنهم بنبذ عهودهم، وبعود حال القتال بينهم وبين المؤمنين كما كانت، بعد أن ثبت بالتجربة أنهم لا عهود لهم يُوفى بها ، ولا أيمان يبرونها ، بل يعقدونها عند الخوف، وينقضونها عند الشعور بالقدرة على الفتك.

---

(١) راجع هذه المواد في لسان العرب .

وكانت السياسة المتبعة خلال فترة الدعوة اثنين وعشرين عامًا في معاملة أعداء الإسلام هي: ﴿ وإن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي ولَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: ٤١).

وهي سياسة كما يري كل منصف لا إكراه فيها على دين، ولا مبادأة فيها بهجوم، ولكن أعداء الإسلام من مشركين وكتابيين رفضوا أن تشق الدعوة طريقها المسالم، واشتبكوا معه في قتال انتهى بهزائمهم.

فهل اعترفوا بالواقع وتراجعوا عن العدوان ؟ كلا.

لقد كانوا كالثعلب الذي يتماوت ليظفر بالحياة، ويستأنف الغدر والقتل، وتحولوا فرادى وجماعات إلى فلول تجور على حقوق المسلمين وتنال من مكانتهم، فلم يكن بد من منازلة الثعابين وإلزامهم حدود الأدب، وهذا معنى البراءة التي صدرت عن الله ورسوله ﷺ ضد هذه القوى الخائنة.

عز ذلك على بعض المسلمين، وفتح به باب لدسائس المنافقين، وتبرم ضعفاء الإيمان، وكان أكثرهم من الطلقاء الذين أعتقهم النبي ﷺ يوم فتح مكة.

وإنما كان موضع الضعف من بعض المسلمين في ذلك نعرة القرابة، ورحمة الرحم، وبقية عصبية النسب، إذ كان لا يزال لكثير منهم أولو قربى من المشركين يكرهون قتالهم، ويتمنون إيمانهم، ويرجون إذا تركوا وشأنهم، بل كان لبعض ضعفاء الإيمان منهم بطانة ووليجة منهم[1].

صلة الآيتين بما قبلهما :

بعد أن بين لهم فضل الإيمان والهجرة والجهاد، وما بشر الله به أهله من رحمة ورضوان، وجنات لهم فيها نعيم مقيم، وأن هذا لا يتم إلا بترك

(١) التفسير الموضوعي للشيخ/ محمد الغزالي.

ولاية الكافرين، وإيثار حب الله ورسوله، والجهاد في سبيله على حب الوالد والولد والأخ والزوج والعشيرة والمال والسكن، فقال - سبحانه -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي: اعملوا بمقتضى الإيمان، ولا تتخذوا أحدًا من أب أو أخ وليًّا ينصره في القتال، وهم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى إن اختاروا الكفر على وجه الرضا والمحبة.

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: تقديم الآباء على الإخوان **(الإخوة والأخوات)** لأنّهم الأصل، ومحبة غيرهم لهم تبع، وإذا كانت محبة الوالدين واجبة لما قدما وتحملا في تربية أولادهما، إلا أن محبة الحق أوجب وأولى.

الثانية: التعبير بإن الشرطية في قوله: ﴿ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ ﴾ فيه إشارة إلى أن ذلك أمر نادر الوقوع، وهو مخالف للفطرة السوية ففي الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة...**»[1].

الثالثة: أسلوب القصر في قوله: ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾: من تعريف الطرفين، وتوسط ضمير الفصل، فيه إشارة إلى أن هؤلاء المذكورين هم الكاملون في الظلم، وظلم غيرهم بمثابة العدم.

الرابعة: أن المحبة الحقيقية ما وافقت الشرع، لقوله ﷻ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

الخامسة: أن الجزاء الإلهي مبني على التكليف والاختيار، وأنه لا جبر ولا ظلم، وذلك مفهوم من الآية الكريمة، فالله لم يخلق أهل النار للنار بلا آثام اقترفوها، أو جريرة فعلوها، وإلا كان ظلمًا، والظلم من الله ﷻ محال.

قال - تعالى -: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ومَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ومَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ

(١) رواه البخاري، كتاب: القدر، باب: الله أعلم بما كانوا عاملين، حديث (٦٥٩٩)، ومسلم، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، حديث (٢٦٥٨).

لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

سبب النزول :

ظاهر هذه الآية أنها خطاب للمؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين [١].

وقيل: إن هذه الآية نزلت في كل من ثقلت عليه الهجرة عندما دعوا إليها، لما أمر ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة، جعل الرجل يقول لأبيه، والأب لابنه، والرجل لزوجته: إنا قد أمرنا بالهجرة. فمنهم من سارع لذلك، ومنهم من أبى أن يهاجر، فيقول أحدهم: والله لئن لم تخرجوا إلى دار الهجرة، لا أنفعكم ولا أنفق عليكم شيئًا أبدًا.

الأحكام الفقهية :

الحكم الأول: في موالاة الكافرين :

نهي الإسلام أتباعه عن موالاة الكافرين، فأصل الولاية: المحبة و النصر؛ وذلك أن اتخاذهم أولياء موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله ورسوله ﷺ، وتقديم محبتهم على محبتهما، ومن فعل ذلك صار مثلهم كما قال - تعالى -: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١]. ومن فعل ذلك أيضًا فقد خسر خسرانًا مبينًا. قال - جل وعلا -: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ [آل عمران: ٢٨].

الحكم الثاني: في معاملة الكافرين بالحسنى :

لا مانع من معاملة غير المسلمين بالحسنى والبر بهم، بل إن ذلك من الأساليب المشروعة التي أمرنا بإتباعها في مجالات الدعوة إلى الإسلام. قال - عز شأنه -: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال ﷻ: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقال - تبارك وتعالى -: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ

---

(١) وقد روت فرقة: أن هذه الآية إنما نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفر، فالمخاطبة على هذا إنما هي للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها من بلاد العرب.

يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

وقد سألت أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما- رسول الله ﷺ فقالت: إن أمي قدمت على راغبة - وهي مشركة- أفأصلها ؟. قال: ((صلي أمك)) [١].

قال القرطبي رحمه الله: دل قوله - تعالى -: ﴿ لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ على أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان، وفي مثله تنشد الصوفية:

يقولون لي : دار الأحبة قد دنت وأنت كئيب إن ذا لعجيب
فقلت وما تعني ديار قريبة إذ لم يكن بين القلوب قريب
فكم من بعيد الدار نال مراده وآخر جار الجنب مات كئيب [٢]

الحكم الثالث: في أنواع الفسق :

كل من جاهر بالمعاصي فهو فاسق؛ لأنه يأتي ببعض المعاصي ولا يبالي، فإذا كان معتقدًا صحة هذا الصنيع، فهو فسق عقدي يخرج صاحبه من الملة، كالمذكورين في الآية الكريمة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ ﴾. أما إذا كان يتظاهر بذلك ابتغاء مآرب دنيوي، وهو يعتقد أن هذا من كبائر الذنوب فهو عاصٍ ولا يخرج من الملة، وكلاهما يُستتاب، فإن تابا تاب الله عليهما، وإن لم يتوبا: قتل الأول لردته، وعذر الثاني حسبما يتراءى للحاكم الشرعي.

المعنى العام :

ينهي الله عباده المؤمنين [٣] عن موالاة الكافرين الذين قدموا محبة

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الجزية، باب: إثم من عاهد ثم غدر، حديث (٣١٨٣) ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج، حديث (١٠٠٣). وأبو داود، حديث (١٦٦٨).

(٢) لانقطاع الصلة بينهما.

(٣) ومن بينهم: حاطب بن أبي بلتعة، وهو من أهل بدر، فقد كتب إلى مشركي مكة سرًا يعلمهم فيه بما عزم عليه الرسول ﷺ من قتالهم؛ ليتخذ له بذلك يدًا عندهم يكافئونه عليها بحماية من كان له عندهم من قرابة. وقد نزلت سورة الممتحنة لتنهى المؤمنين عن موالاة أعداء الله وأعدائهم، وعن مودتهم.

الكفر على الإيمان، وآثروا الفاني على الباقي ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي: فأولئك المتولون لهم هم الظالمون لأنفسهم ولجماعتهم؛ لأنهم تجرأوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء.

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو: أن محبة الله ورسوله، يتعين تقديمها على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما، فقال - تعالى -: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ﴾. ومثلهم: الأمهات، وحب الأبناء للآباء له منا شيء، فهو أول شيء يشعر به، وينمي في نفسه بنماء تمييزه وعقله، وإحسان والديه إليه، واقتران صورتهما في خياله بكل محبوب له.

وقد كان العرب يتفاخرون بآبائهم في أسواقهم، وفي لقاءات الحج، حتى قال الله - تعالى -: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة:٢٠٠]. فإن أهين بقول أو فعل: ترجف أعصابه، ويغلى دمه، ولا تكاد تهدأ ثائرته إلا بالانتقام له.

يؤيد هذا الشعور والغرائز ملكات تطبعها الحقوق العرفية، والآداب الاجتماعية، والشرائع الدينية.

ولما كانت موالاتهم لهم من قبيل طاعتهم في الشرك الذي نهاهم عنه، ونصر الشرك وأهله لأجله شرك، بل اتفق العلماء على أن الرضا بالكفر كفر، فكيف بنصر الكفر على الإيمان بموالاة الكافرين ونصرهم على المؤمنين.

ولم ينههم عن حب آبائهم المشركين، بل حذرهم أن يكونوا أحب إليهم من الله ورسوله، وجهاد ما في سبيله؛ لأن هذا لا يجتمع مع الإيمان الصحيح.

كذلك نهاهم في سورة المجادلة [1] عن موادة من حادّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.. فإن الموادة هي المعاملة الحبيبة. والمحادة: شدة العداوة والبغضاء. فاشتراك المؤمن المحب لله ورسوله مع المحادّ لله ورسوله في المودة المرتبة على صفتيهما: جمع بين الضدين، فهو في معنى موالاتهم، بل أخص منها.

---

(١) الآية (٢٢) من سورة المجادلة.

٢- ﴿وأَبْنَاؤُكُمْ﴾: حب الوالد للولد: أحر وأقوى، وأنمى وأبقى عن عكسه، وهو أشد شعورًا؛ لكون ولده بضعة منه، وكونه نسخة منه يرجى لها البقاء ما لا يرجو لنفسه، فهو يحرص على بقائه كما يحرص على نفسه أو أشد، ويحرم نفسه من كثير من الطيبات إيثارًا له بها في حاضره ومستقبله، وكثيرًا ما يقترف الحرام في سبيل السعي والادخار له.

إن عاطفة البنوة ونعرتَها من أقوى غرائز الفطرة. قال الله - تعالى -: ﴿المَالُ والْبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا والْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٦].

والمعنى: أن الأعمال الصالحة التي يبقى ثوابها للإنسان بعد الحياة الدنيا خير من زينة المال، فيها ثوابًا، وخير من البنين، فيها أملاً، فهو نشر على ترتيب اللف.

٣- ﴿وإِخْوَانُكُمْ﴾: حب الإخوة يلي مرتبة حب البنوة والأبوة، فالأخ: صنو أخيه، منبتهما واحد، ودمهما واحد، وكل منهما يشعر بالاعتزاز بعزة الآخر، إلا أن يفسد فطرته الحسد، والبيوت التي سلمت فطرتُهم، وكرمت أخلاقهم، يحبون إخوانهم كحبهم أنفسهم وأولادهم، ويوقرون كبيرهم توقيرهم لأبيهم، ويرحمون صغيرهم رحمتهم لأبنائهم، ويكلفون مَنْ يتركه والده صغيرًا، فيتربى مع أولادهم كأحدهم، وقد تكون العناية به أشد.

٤- ﴿وأَزْوَاجُكُمْ﴾ حب الزوجة ضرب خاص من شعور النفس، ليس له في أنواعها ضريب، فهو الذي يتحد به بشران فيكون كل منهما متممًا لوجود الآخر.

ولا يوجد تعريف لهذا الحب، وهذا الاتحاد أبلغ وأفصح مما عبر عنه القرآن الكريم في قوله - تعالى -: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وقلما تكون زوجة الرجل معارضة له في دينه، وولاية من يدين لله بولايته.

٥- ﴿وعَشِيرَتُكُمْ﴾ حب العشيرة حب عصبية وتعاون واعتزاز، وولاية ونصر في القتال، ويكون على أشد في أهل البداوة، ومن على مقربة منهم. وقد أضعف الإسلام هذا النوع من الحب والولاية بالمساواة بين

المسلمين في أخوة الإسلام، وبتحريم الدعوة إلى عصبية والقتال على عصبية قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

والمقصود بالعصبية: التناصر بالحق وبالباطل، لاشتراك التناصرين بالنسب: أي: نسب القبيلة أو السلالة أو الأسرة. قال - سبحانه وتعالى -: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

٦- ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ حب الأموال المكتسبة طبيعي أيضًا، وهو أقوى في النفس من حب الأموال الموروثة؛ لأن عناء الإنسان في اكتسابها يجعل لها في قبله من القيمة والمنْزلة ما ليس لما جاءه عفوًا.

٧- ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات.. إلخ.

٨- ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ من حسنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فأنتم فسقة ظلمة ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: انتظروا ما يحل بكم من عقاب ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الذي لا مرد له ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة الله شيئًا من الأشياء المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله ﷺ وتقديمهما على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد.

وعلامة ذلك: أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه هوى فيه، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يفوت عليه محبوبًا لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه على ما يحبه الله ورسوله، دل على إنه ظالم تارك لما يجب عليه.

أما حب الله، فهو الذي يجب أن يكون فوق كل حب؛ لأنه - سبحانه وتعالى - هو المتصف وحده بكل ما شأنه أن يحب من جمال وكمال، وبر وإحسان، وكل ما يحب في الوجود فهو من صنعه وفيض جوده وإحسانه، ومظهر أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

وفوق هذا كله (**جميع هذه الأنواع**) حب العبد لربه؛ لفضله وإحسانه بالإيجاد والإمداد في الدنيا، وتسخير قواها ومنافعها للناس.

وحبه لما وعد به مما يشبهه، ولكنه يعلوه ويفوقه: من الثواب في الدار الآخرة. وهناك نوع آخر: هو حب العبادة المحضة والمعرفة (**العليا**)؛ وهي المنْزلة التي تنافس فيها المتنافسون[1].

منزلة المحبة :

هي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات. والمحبون لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته: أن المرء مع من أحب، فيا لها من نعمة على المحبين سابغة.

وقل ساعدي ، يا نفس بالصبر فعند اللقاء ذا الكد يصبح زائلاً
فما هي إلا ساعة ، ثم تنقضي ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلاً [2]
بدم المحب يُباع وصلهم فمن الذي يبتاع بالثمن؟

تالله ما هُزلت، فيستامها المفلسون، ولا كسدت، فيبيعها بالنسيئة المعسرون. لقد أقيمت للعرض سوق مَن يزيد، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون، وقام المحبون ينظرون.

ولما كثر المدعون للمحبة، طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطي الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقة الشجي، فتنوع المدَّعون في الشهود. فقيل: لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة بتزكية: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ولا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. فتأخر أكثر المحبين، وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ٥٠٩- ٥١١ .

(٢) لما تحلى به من الصبر الجميل .

نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم. فلبوا البيعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فلما تم العقد وسلموا المبيع، قيل لهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [آل عمران:١٦٩، ١٧٠].

ولعل سائلاً يسأل: أين نحن من هؤلاء؟ نقرأ سيرتَهم فلا يتحرك فينا شيء، لماذا هذا الفتور؟ أصبحنا لا تؤثر فينا مواعظ، ولا ترهيب من نار، ولا ترغيب في جنة، لماذا هذا الموات؟!!!

لقد فقد أكثر المسلمين هذا الشعور بالحب المادي لأنفسهم ولشهواتهم، وإيثاره على حب الله ورسوله الذي هو مناط السعادة.

والجهاد في سبيله الذي كان مناط سيادتهم، وكان من عقابهم على ذلك:

ابتلاؤهم ببذل أنفسهم وأموالهم في سبيل أعدائهم. ولا نجاة لهم إلا بتربية أنفسهم وأموالهم في سبيل الله.

فمن لم يتح له الموت في جهاد العدو، فعليه بطلب الموت الإرادي في جهاد النفس، فلا حياة بعد الموت.

فإن شئت أن تحيا سعيدًا فمت به شهيدًا وإلا فالغرام له أصل

ما ترشد إليه الآيات الكريمة:

١- تحريم موالاة الكافرين على حساب الدين الحق.

٢- أن من أحب موالاتهم صار منهم.

٣- أن محبة الله ورسوله ﷺ مقدمة على كل محبة.

٤- أن ترك الجهاد ذل ومهانة كما نعيش الآن.

٥- الوعيد بخزي الدنيا والآخرة لمن ترك الجهاد رغبة عنه وإيثارًا للدنيا.

تحريم الإسلام للعجب[1]:

يقول الله - تعالى -:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٥- ٢٧].

صلة النص بما قبله :

لما نهى الحق عز وجل عن موالاة الكافرين، وبين أن الإعراض عن الجهاد يوقع في الفسق، امتن هنا على المؤمنين المجاهدين بالنصر، فقال: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾.

معاني المفردات والتراكيب :

﴿ مَوَاطِنَ ﴾ : جمع موطن، وهو البقعة التي أراد الله - تعالى - أن تقوم الحرب فيها بين المؤمنين والكافرين.

﴿ حُنَيْنٍ ﴾ : مكان بين مكة والطائف، كانت فيه الواقعة المشهورة بين المسلمين بقيادة الرسول ﷺ والمشركين بقيادة **(مالك بن عوف)** سيد هوازن.

﴿ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي: على اتساعها.

﴿ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ أي: فررتم منهزمين.

﴿ سَكِينَتَهُ ﴾ أي: الطمأنينة والسكون على الرسول ﷺ، وعلى المؤمنين فثبتوا بعد الفرار حتى نصرهم الله على أعدائهم[2].

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: أكدّ الله عز وجل نصره لعباده بأسلوب القسم، والتقدير: **(والله لقد نصركم الله)** ويفهم من هذا أن النصر من عند الله العزيز الحكيم،

---

(١) هذا النص تابع للنداء السابق.

(٢) راجع هذه المواد في لسان العرب.

وأن الأسباب لا ثمرة لها إلا بمشيئة الله ﷻ

الثانية: أن الله لا يُعَاجل أحدًا بالعقوبة، حتى يقطع عذره، ويقيم عليه الحجة، وقد أخطأ الصحابة - رضي الله عنهم - في مواقف كثيرة، كموقفهم من أسرى بدر، والخروج لأحد، وبعض الشروط التي فُرضت عليهم في صلح الحديبية، فلما ثابوا إلى رشدهم وتابوا، تاب الله عليهم.

الثالثة: التنكير في كلمة (**شَيْئًا**) يفيد التقليل أو التحقير، ومعنى هذا: أَنّ الكثرة أو الأسباب لا تغني عن أصحابها شيئًا، ولو كان قليلاً أو حقيرًا، بل كل شيء مرتبط بمشيئة الله ﷻ، كما قال - جل وعلا -: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس :٨٢).

الرابعة: حينما خرج الصحابة - رضي الله عنهم - في أعقاب غزوة الفتح، إلى أن فروا منهزمين مرت فترة زمنية طويلة، كان المناسب أن يعبر عنها بحرف العطف (**ثم**) الذي كان يفيد الترتيب والتراخي، كما أنّهم استمروا فترة في الفرار إلى أن عادوا إلى صوابهم، ونزلت السكينة عليهم، فكان التعبير عن ذلك بقوله - سبحانه -: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾.

الخامسة: التنكير في كلمة (**جُنُودًا**) للتكثير، فقد كانوا ألوْفًا، ويمكن أن يكون التنكير للتعظيم، إذ أن الواحد منهم قد وهبه الله مقدرة على التنكيل بجيش المشركين بمفرده ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ (الحديد :٢١).

الأحكام الفقهية :

الأول: في عوامل النصر :

عوامل النصر كثيرة؛ منها: الثبات في مواجهة الأعداء، وذكر الله ذكرًا كثيرًا، وطاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ، وعدم التنازع، والتحلي بالصبر الجميل، والتنَزه عما يحبط الأعمال: كالبطر والرياء، والصد عن سبيل الله.

الحكم الثاني: في تحريم العجب :

من كبائر الذنوب، بل من محبطات العمل الصالح، إعجاب الإنسان بنفسه، أو رضاه عنها على ما فيها من علل وأدواء، وهي في الغالب: تأمر صاحبها بما فيه هلاكه قال - تعالى -: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف :٥٣]. وقوله ﷺ: «**أربع مهلكات شح مطاعٌ، وهوىً متبع، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه**» [(١)].

الحكم الثالث: في التولي يوم الزحف :

من الموبقات لأصحابها: الفرار يوم الزحف؛ لأن في ذلك إضعاف لشوكة المؤمنين، وإغراء للكافرين على الطمع في المسلمين، ونصرة للباطل على الحق. وقد نهى القرآن الكريم عن ذلك، فقال: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال :١٦].

كما نهى رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**». قالوا: وما هن يا رسول الله ؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**» [(٢)].

الحكم الرابع: في توبة المذنبين :

كل من أذنب ذنبًا غير الشرك، فإن باب التوبة مفتوح أمامه، فإن تاب توبة نصوحًا، تاب الله عليه وبدَّل سيئاته حسنات، كما وعد -جل وعلا- : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان :٧٠]. حتى المرتدين، فإن الإسلام يعطيهم فرصة للعودة إلى صوابهم، فيستتابوا ثلاثة أيام، فإن تابوا تاب الله

---

(١) **حسن**: رواه الطبراني، بلفظ: ثلاث مهلكات، وأربع منجيات، في الأوسط (٣٢٨/٥)، حديث (٥٤٥٢)، والبيهقي في الشعب (٤٧١/١)، حديث (٧٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٢٩).

(٢) سبق تخريجه.

عليهم، وإن لم يتوبوا قتلوا؛ لحديث: «**من بدَّل دينه فاقتلوه**»[1].

ومن اقترف ذنبًا آخر، ولم يتب منه، فهو في مشيئة الله - تعالى- إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه بجرمه ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء :٢٣].

سبب النزول :

لما توجه الرسول ﷺ بأصحابه بعد فتح مكة، ووجدوا كثرة عددهم فقال قائلهم: لن نُهزم اليوم عن قلة. وكلهم الله إلى أنفسهم وقتا يسيرًا، فظهر عجزهم، واستخفهم الشيطان ببعض ما كسبوا، فنَزل قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾.

المعنى العام :

يمتن الله - تعالى - على عباده المؤمنين بنصره له على أعدائهم في مواطن القتال الكثيرة، حتى يوم حنين الذي اشتدت عليهم الأزمة فيه. وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة، ودانت له قريش بعد بغيها وعدوانها، سمعَ أن هوازن اجتمعوا لحربه، وقد توغرت صدورهم للنصر الذي آتاه الله رسوله والمؤمنين. فحشدوا حشودًا كبيرة بقيادة مالك بن عوف سيّد هوزان. وقد أمرهم فجاءوا معهم بأموالهم ونسائهم وأبنائهم، حتى لا يفر أحد منهم.

فسار إليهم رسول الله ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، فكانوا اثنى عشرا ألفًا، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة.

فلما التقى المسلمون والكفار، ولّى المسلمون مدبرين، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا نحو مائه رجل ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يركض بغلته نحو المشركين، ويقول: «**أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب**».

---

(١) سبق تخريجه .

ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين - وكان رفيع الصوت - فناداهم: يا أصحاب السمرة [١]، يا أهل سورة البقرة، فلما سمعوا صوته، عطفوا عطفة رجل واحدٍ، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونسائهم وأموالهم، وذلك قوله - تعالى -: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الغزوة (**الواقعة**) بين مكة والطائف.

وتعتبر هذه الغزوة دروسًا عملية عظيمة في العقيدة [٢]:

---

(١) هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية .

(٢) **منها:** قانون الأسباب والمسببات، فهي كغزوة بدر، فإذا كانت واقعة بدر قد قررت للمسلمين أن القلة لا تضرهم شيئًا في جنب كثرة أعدائهم - إذا كانوا صابرين ومتقين - فإن غزوة حنين قد قررت للمسلمين أن الكثرة أيضًا لا تفيد إذا لم يكونوا صابرين متقين، وأنزل الله هذه العظة البليغة في كتابه العزيز في الوقعتين في سورة آل عمران، وفي حنين في سورة التوبة .

ومنها: خروج المرأة للجهاد مع الرجال، فأما خروجها لمداواة الجرحى وسقي العطاشى، فقد ثبت في الصحيح في عدة غزوات، وأما خروجها للقتال فقد ثبت في السنة، وعلى كل حال فإن خروجها مع الرجال مشروط بشروط مجملها: أن لا يترتب على ذلك مفسدة، وأن يكون في حدود استطاعتها [راجع كتاب فقه السنة للبوطي ص ٣٠٤] .

وقد روى ابن إسحاق وابن مسعود بسند صحيح: أن رسول الله ﷺ التفت فرأى أم سليم بنت ملحان وكانت مع زوجها أبي طلحة، فقال لها رسول الله ﷺ: أم سليم ؟!! قلت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك، كما تقتل الذين يقاتلونك وكان معها خنجر، فقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر الذي معك يا أم سُليم ؟ قالت: خنجر أخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بعجتهُ به .

ومنها: جرأته ﷺ في الحرب: عندما تفرقت جموع المسلمين في الوادي وسط حومة الوغى، حيث تحف به كمائن العدو التي فوجئوا بها، فثبت ثباتًا عجيبًا امتد أثره إلى نفوس أصحابه . وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلاً عليه .

ومنها: تحريم قتل النساء والأطفال والشيوخ والعبيد: فقد دل على ذلك حديث الرسول ﷺ لما رأى المرأة التي قتلها خالد بن الوليد، وقد اتفقت الأمة على ذلك . ويستثنى منه إذا اشتركوا في القتال وباشروا مقاتلة المسلمين، فإنهم يقتلون مقبلين، ويجب الإعراض عنهم معرضين .

ومنها: أن الجهاد لا يعني الحقد على الكافرين، وقد دل على ذلك أن بعض الصحابة قالوا لرسول الله ﷺ عند منصرفهم من حصار الطائف: ادع الله على ثقيف..... =

﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ أي: لم تُفدكم شيئًا قليلاً، أو كثيرًا.

﴿ وضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ ﴾ أي: أصابكم من الهم والغم، حين انْهزمتم ﴿ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ على رحبها وسعتها ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ أي: منهزمين ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾. والسكينة ما يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل ما يثبتها ويسكنها، ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد، ولا سيما عندما سمعوا نداءه ﷺ، ونداء العباس رضي الله عنه يدعوهم إلى نبيهم بأمره.

قال: ﴿ وعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولم يقل: وعليكم؛ لأن الخطاب للجماعة، وفيهم بقية من المنافقين وضعفاء الإيمان، كما تقدم، فهذا دقة في بلاغة القرآن.

﴿ وأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ أي: وأنزل مع هذه السكينة جنودًا روحانية: وهم الملائكة أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين يثبتونَهم ويبشرونَهم بالنصر ﴿ وعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم ﴿ وذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ ﴾ يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ. ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ ﴾ فتاب الله على كثير ممن كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فردَّ الله عليهم نساءهم وأولادهم.

﴿ واللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة وقبول توبتهم. فلا

= فقال: ((**اللهم اهد ثقيف واهد بهم**)) السيرة للبوطي ٢٩٩. ومن ثم فإن الدعاء من المسلمين، لا ينبغي أن يتجه إلى غيرهم إلا بالهداية والإصلاح: لأن هذه الغاية، هي الحكمة من مشروعية الجهاد.

هذه هي عقيدتنا العدالة، والمساواة الحقيقية الرائعة، فلتدفن نفسها في الرغام كل دعوى باطلة؛ لقد قامت هذه العقيدة بالصفوة المختارة، لا بالزبد الذي يذهب جفاءً.

صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله، وسيد الأولين والآخرين، وعلى أصحابك البررة من الأنصار والمهاجرين رضوان الله عليهم أجمعين.

ييأسنَّ أحد من رحمته ومغفرته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

ونكتة التعبير عن هذه التوبة، وما يتلوها من المغفرة والرحمة بصيغة الفعل المضارع ﴿يَتُوبُ﴾ إعلام المؤمنين بأن ما وقع في حنين من إيمان أكثر ممن بقى من الذين غلبوا وعذبوا بنصر المؤمنين عليهم.

فإن من سنة الله: أن يميز الخبيث من الطيب بمثل ذلك. وما من حرب من حروب المسلمين الدينية الصحيحة إلا وكان عاقبتها كذلك. ولما صارت الحروب دنيوية فقدوا ذلك، ولله الأمر من قبل ومن بعد [١].

ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

١ - أن النصر من عند الله العزيز الحكيم.

٢ - أن العجب بالنفس من كبائر الذنوب.

٣ - أن الأسباب لا تغني عن أصحابها شيئًا - ولو كانوا قليلا - إن لم يرزقوا التوفيق.

٤ - أن الفرار يوم الزحف - لغير عذر شرعي - من كبائر الذنوب.

٥ - أن الملائكة جند من جنود الله - تعالى - يؤيد بهم المؤمنين.

٦ - أن باب التوبة مفتوح أمام المذنبين إلى ما قبل الغرغرة، أو طلوع الشمس من مغربها.

* * *

(١) انظر: في ظلال القرآن، تيسير الكريم الرحمن (٣٣٣).

النداء الثاني
كيفية التعامل مع المشركين

قال الله - تعالى - :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة :٢٨، ٢٩].

صلة النص بما قبله :

لما حض الله عز وجل المؤمنين على الجهاد في الآيات السابقة، ونهاهم عن التقاعس عنه، أمرهم هنا بأن لا يمكنوا المشركين من دخول المسجد الحرام، وهذا لا يتم إلا بالجهاد.

معاني المفردات والتراكيب :

﴿نَجَسٌ﴾ : أي: في قذارة معنوية أو حسية، والصحيح: الأول.

﴿عَامِهِمْ هَذَا﴾ : أي: سنة تسع من الهجرة.

﴿عَيْلَةً﴾ : أي: الفقرة والحاجة.

﴿فَضْلِهِ﴾ الفضل يشمل: العطاء المادي والمعنوي: وهو الرضا بما قسم الله - تعالى -.

﴿الْجِزْيَةَ﴾ هي: المال الذي يدفعه غير المسلمين؛ ليبقوا على دينهم وهم آمنون.

﴿صَاغِرُونَ﴾ أذلاء لكفرهم[١].

من لطائف القرآن الكريم :

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ : هذا أسلوب حصر **(قصر)**، وعلامته بدء

---

(١) راجع هذه المواد في لسان العرب، تفسير المنار (٢٥١) .

الجملة بـ (إنما)، قصر موصوف على صفة.

﴿ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ ﴾ النهي عن القربان مبالغة في النهي عن الدخول، كما في قوله - تعالى -: ﴿ ولا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾ (الإسراء: ٣٢).

﴿ عَيْلَةً ﴾: نكرة تفيد التعظيم، وعلى هذا فإذا كان الله ﷻ يؤمنهم من الفقر الكبير، فلا يخافون من الفقر اليسير من باب أولى.

﴿ إِن شَاءَ ﴾: علق الوعد بالغنى على المشيئة، إذ قد يكون الفقر نافعًا لبعض الخلق، فلا يغنيهم الله ﷻ.

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾: ختم الآية الكريمة بالعلم والحكمة؛ للإشارة إلى أن كل شيء مبني على العلم والحكمة وليس عبثًا.

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ يستنبط من هذه الجملة: أن المؤمنين لا يبدأون غيرهم بالقتال، بل بالدعوة إلى الإسلام، فإن أسلموا فبها ونعمت، وإن أصروا على كفرهم يقاتلونهم، واستمرارهم على الكفر يفهم من صيغة المضارع: ﴿ لا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾: أي: هم في صغار وذل دائمين [١].

سبب النزول:

لما أمر النبي ﷺ عليًّا أن يقرأ على مشركي مكة أول سورة براءة، وينبذ إليهم عهدهم، وأن يخبرهم أن الله بريء من المشركين، قال أناس: يا أهل مكة ستعلمون ما تلقون من الشدة وانقطاع السبل وفقد الحمولات، فنزلت الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [٢].

الأحكام الفقهية:

الحكم الأول: في نجاسة المشركين:

ذهب بعض العلماء إلى أن نجاسة المشركين حسية، وقد نقل هذا

(١) البحر المحيط (٥/٢٧)، تفسير آيات الأحكام (١/٥٤٣).

(٢) البحر المحيط (٥/٢٧)، تفسير آيات الأحكام للصابوني (١/٥٤٣).

الزمخشري عن ابن عباس، حيث قال: إن أعيان المشركين نجسة، كالكلاب والخنازير؛ تمسكًا بهذه الآية. ولكن الفقهاء قد اتفقوا على خلاف ذلك، وأن أبدانَهم طاهرة؛ للإجماع على أنّهم لو أسلموا كانت أجسامهم طاهرة، مع أنه لم يوجد ما يطهرها من الماء أو النار أو التراب أو مثل ذلك. ويدل على ذلك - أيضًا - أنه عليه الصلاة والسلام كان يشرب من أواني الكافرين.

وقد كان المسلمون يعاشرون المشركين ويخالطونَهم، ولا سيما بعد صلح الحديبية، إذ امتنع اضطهاد المشركين وتعذيبهم لمن لا عصبية له. وكانت رسلهم ووفودهم ترد على النبي ﷺ، ويدخلون مسجده عليه الصلاة والسلام، وكذلك أهل الكتاب ونصارى نجران واليهود، ولم يُعامل أحد معاملة الأنجاس، ولم يؤمر واحد من المسلمين بغسل شيء مما أصابته أبدانهم.

ولا يصح القول بنجاسة أعيانِهم، ولا يصح أن تكون نجاسة تعبدية إلا بنص صريح. وقد اتبع القائلون به سنن بعض الوثنيين الهنود، وبعض المتعصبين من النصارى الذين يعدون كل من لم يعتمد نجسًا، ما هذا بمذهب، ولكنه من سخافات التعصب. وقد كان هؤلاء ولا يزالون يرون أن هذه المعمودية [1] تغني صاحبها عن الغسل من الجنابة، أو مطلقا. وحكي كثير منهم: أنه تمر عليه الشهور ولا يغتسل فيها لأجل ذلك.

ويعلل بعض قساوستهم المتعصبين: عناية المسلمين بالطهارة من الأحداث والأنجاس، بأن أبدانَهم يخرج منها الدود دائمًا لعدم تعمدهم.

وقد تحدث بعض الفضلاء أنه كان في فرنسا، فرأى أن غلامًا لصاحب الفندق الذي كان فيه: ينظر في الماء الذي يتوضأ منه الوضوء الشرعي، ثم يذهب إلى والدته فيناجيها (**يوشوشها**). فلما تكرر ذلك

---

(١) في المعجم المسمى بالمنجد لليسوعيين: المعمودية: أول أسرار الدين المسيحي وباب النصرانية، وهي: غسل الصبي وغيره بالماء باسم الأب والابن والروح القدس، ولم يذكر تقديس كهنتهم لهذا الماء (تفسير المنار للشيخ / محمد رشيد رضا).

منه، سأل والدته عن ذلك، وما يقوله لها ؟ فتمنعت، فألح، فأخبرته أنه يقول لها: يا أمي، إنني لا أرى في الماء الذي يغسل منه هذا المسلم وجهه ويديه دودًا، كما قال لنا معلمنا القسيس !!!.

الحكم الثاني: في المراد بالمسجد الذي يمنع المشرك من دخوله؟

ولفظ المشركين في الآية عام، فيشمل كل كافر، أو يهودي، أو نصراني، أو غير ذلك، وفي المراد بالمسجد الحرام أقوال عديدة.

أ - من العلماء من أخذ بظاهر الآية: وهو مذهب الشافعية، فجعل الآية خاصة في المسجد الحرام، عامة في الكفار، فأباح دخول غير المسلمين سائر المساجد، ومنع جميع الكفار من دخول المسجد الحرام.

ب - وذهب المالكية إلى أن المراد بالمسجد: المساجد جميعًا، فالمسجد الحرام بالنص، وبقية المساجد تقاس عليه. وقد استدل مالك - رحمه الله - بأن العلة وهي: **(النجاسة)** موجودة في المشركين، والحرمة ثابتة لكل المساجد، فلا يجوز تمكينهم من الدخول: لا في المسجد الحرام، ولا غيره.

ج - وقال عطاء، وهو مذهب الحنابلة: إن المراد: الحرم كله **(مكة)**، وما حولها من الحرم. والإمام أحمد - رحمه الله - قد استدل بأن لفظ **(المسجد الحرام)** قد يطلق ويراد به الحرم كله، كما في قوله - تعالى -: ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾[الفتح :٢٥]، وقوله - تعالى -: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾[الفتح :٢٧]. وقد كان الصد عن دخول مكة، وأخبر - تعالى - بأنهم سيدخلونها آمنين.

د - ومذهب الحنفية: المراد: النهي عن تمكينهم من الحج والعمرة، ودليل أبي حنيفة - رحمه الله -: أولاً: قوله - تعالى -: ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ فإن تقييد النهي بذلك يدل على اختصاص الوقت من أوقات العام؛ أي: لا يحجوا ولا يعتمروا بعد هذا العام.

ثانيًا: قول علي بن أبي طالب ﷺ حين أرسله ﷺ ينادي بسورة

براءة: ألا يحج بعد هذا العام مشرك[١].

ثالثًا: قوله - تعالى -: ﴿ وإنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ فإن خشية العيلة إنما تكون بانقطاع تلك المواسم، حيث كانوا يتاجرون في موسم الحج والعمرة.

رابعًا: إجماع المسلمين على وجوب منع المشركين من الحج، والوقوف بعرفة، وسائر أعمال الحج، وإن لم تكن هذه الأفعال في المسجد الحرام. ولعل ما ذهب إليه الحنفية يكون أرجح؛ لقوة أدلتهم، والله أعلم[٢].

الحكم الثالث: وجوب الجهاد :

قال الله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ والْمُنَافِقِينَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ ومَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المَصِيرُ ﴾[التوبة :٧٣]، [التحريم :٩]. وقال عز وجل: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ولا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ . وبهذا نعلم أن على جميع المؤمنين أن يجاهدوا غير المسلمين، فمن استطاع أن يجاهدهم بنفسه فليفعل، ومن استطاع أن يجاهدهم بماله فليفعل، ومن استطاع أن يجاهدهم بهما فليفعل، ومن استطاع أن يجاهدهم بلسانه فليفعل، فإن لم يستطع أن يجاهدهم بشيء من ذلك فليجاهدهم بقلبه، وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان.

الحكم الثالث: في علة القتال :

أمر الله المؤمنين في الآيات السابقة بقتال أهل الشرك، وعدم تمكينهم من المسجد الحرام، وفي هذه الآيات أمر الله بقتال أهل الكتاب - التوراة والإنجيل - إلى أن يسلموا أو يعطوا الجزية، وبين أن العلة في لزوم قتالهم أمور :

الأول: أنهم لا يؤمنون بالله ما داموا على حالتهم التي هم عليها، فإن اليهود يعتقدون أن الإله جسم، مع أن الإله الحق منزه عن الجسمية

---

(١) رواه البخاري: كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿ وأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ ورَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ ﴾ ، حديث (٤٦٥٦)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: لا يحج البيت مشرك، حديث (١٣٤٧)، وأبو داود، حديث (١٩٤٦)، والترمذي، حديث (٣٠٩١) .

(٢) روائع البيان (٥٤٨/١) .

والشبيه، فهم لا يؤمنون بوجود الإله الحق المنَزه عن الجسمية. والنصارى يعتقدون أن الإله حل في عيسى، مع أن الإله الحق منَزه عن الحلول في غيره؛ فهم لا يؤمنون بوجود الإله الحق المنَزه عن الحلول في غيره.

الثاني: أنهم لا يؤمنون باليوم الآخر على الوجه الذي وردت به الآيات والنصوص، فإنّهم يعتقدون بعث الأرواح دون الأجساد، ويرون أن أهل الجنة لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتمتعون بالحور العين، ولا يرون وجود أنهار، ولا أكواب، ولا أشجار مما وردت به النصوص، ويقولون: إن نعيم الجنة وعذاب النار معانٍ تتعلق بالروح فقط كالسرور والهم، فهم لا يؤمنون باليوم الآخر على الوجه الذي وردت به النصوص.

الثالث: أنّهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله محمد ﷺ في الكتاب والسنة. وقيل: المراد برسوله الذي يزعمون إتباعه هو موسى وعيسى - عليهما السلام - لليهود والنصارى، بل حرفوا التوراة والإنجيل، وأتوا بأحكام من عند أنفسهم، فهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقادًا وعملاً.

الرابع: أنّهم لا يدينون دين الحق؛ أي: لا يتخذون دين الحق دينًا يعتقدونه ويعملون بأحكامه، وهو الإسلام الناسخ لسائر الأديان، بصريح قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[آل عمران :١٩]، وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران :٨٥].

والتعبير عن اليهود والنصارى بالاسم الموصول للدلالة على أن الصلة علة في الحكم، فالعلة في وجوب قتالهم: أنّهم لم يؤمنوا بالله واليوم الآخر إلخ. وقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ ليبين أن المراد بالذين لا يؤمنون بالله.. إلخ، هم أهل الكتاب. والغرض: تمييزهم عن المشركين في الحكم؛ لأن الواجب في المشركين: القتال إلى أن يسلموا. وأما الواجب في أهل الكتاب: فهو القتال، أو الإسلام، أو الجزية، وألحق بهم المجوس[1].

(١) فإن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، ثم أخذها عمر رضي الله عنه من الفرس المجوس.

الحكم الرابع: في الجزية :

وهي من قولهم: جزى الرجلُ العاملَ أجره يجزيه، إذا أدى ما وجب عليه للعامل من أجرة، فكذلك إذا أدى المعاهد الجزية، فقد أدى ما وجب عليه. وقوله - سبحانه وتعالى -: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ غاية لانتهاء القتال. والجزية: اسم لما يعطيه المعاهد على عهده، وقوله: ﴿عَن يَدٍ﴾: يحتمل أن يراد باليد: يد المعطي أو يد الآخذ، فإن أريد المعطي، كان المعنى: حتى يعطوا الجزية إعطاءً لا تمتنع يدهم عن أن تمتد به فيكونون منقادين طائعين، فإن من أبى وامتنع لا يعطى يده، ومن انقاد وأطاع أعطى يده. ويصح أن يكون المعنى: حتى يعطوا الجزية عن يد المعطي إلى يد الآخر، والمراد: حتى يعطوها بأيديهم نقدًا لا نسيئة، ولا مبعوثة على يد أحد.

وإن أريد يد الآخر، كان المعنى: حتى يعطوا الجزية إعطاءً ناشئًا عن قهر يد قاهر مستولية عليهم، وهي يد المسلمين. أو كان المعنى: حتى يعطوا الجزية عن يد؛ أي: إنعام عليهم؛ لأن قبول الجزية منهم وترك أرواحهم نعمة عظمى تُسدى إليهم.

وقد كانت تقبل منهم على حسب أحوالهم، فمن كان موسرًا دفع ثمانية وأربعين درهمًا في العام، ومن كان وسطًا دفع أربعة وعشرين درهمًا، ومن كان فقيرًا دفع اثني عشر درهمًا، ومن كان معسرًا عُفي عنه، ومن عجز عن الكسب أُعطي مساعدة من بيت المال تأليفًا لقلبه.

المعنى العام :

يا أيها الذين آمنوا لا تمكنوا المشركين؛ لأنهم أنجاس العقيدة والأخلاق، ولا يتورعون عن النجاسات الحسية بعد هذا العام التاسع مع الهجرة ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿عَيْلَةً﴾ فقرًا وحاجة من منع المشركين من قربان المسجد الحرام؛ بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية.

﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فليس الرزق مقصورًا على باب واحد،

ومحل واحد، بل لا ينغلق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإن فضل الله واسع، ورزقه عظيم، خصوصًا لمن ترك شيئًا لوجه الله الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين. وقد أنجز الله وعده، فإن الله قد أغنى المسلمين من فضله، وقد جاءهم الغنى من طرق كثيرة، أسلم أهل نجران، فصاروا يجلبون لهم الميرة، بل أسلم أولئك المشركون ولم يبق أحد منهم يمنع من الحرم ولا من المسجد. ثم تفجرت ينابيع الغنى والثروة من كل جانب. ﴿إن شَاءَ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة؛ لأن الغنى في الدنيا، ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهذا علقه بالمشيئة، فإن الله يُعطي الدنيا مَنْ يحب، ومن لا يحب، ولا يُعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فعلمه محيط، يعلم من يليق به الغنى ومن لا يليق، ويضع الأشياء في موضعها، حكيم فيما يشرع من نهي وأمر، كنهيه عن قرب المشركين من المسجد الحرام بعد العام التاسع من الهجرة، ونهيه قبل ذلك عن اتخاذ آبائكم وإخوانكم أولياء إن اسحبوا الكفر على الإيمان، وأمركم قبل ذلك بقتال المشركين بعد انقضاء عهودهم بأربعة أشهر.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ولا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ نحن لا نحارب معتدين ولا نكره أحدًا على اعتناق الدين الحق كما قلنا سابقًا. إننا نعرض الإسلام فقط على الآخرين. ﴿وقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن ومَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف :٢٩]. فإذا آثر أحد الكفر، قلنا له: لا عليك !! ولن يصيبك منا أذى، كل ما نطلبه منك أن تتركنا ندعو غيرك، وألا تتعرض لهذا الغير إذا استجاب لنا.

إن الإسلام في نظرنا هو العلاقة الفذة بين الله وعباده، وقد كلفنا الله بالبلاغ وإيقاد الضوء أمام من يجهل، فلا تعترض طريقنا ونحن نبلغ الناس، ولا تعترض الآخرين إذا شرح الله صدورهم للحق، فإن ارتضى هذا الحياد، فأمره معنا كما قال - تعالى -: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾[النساء :٩٠].

وإن قال: سأمنعكم من البلاغ، وأمنع الآخرين من الاستجابة. قلنا له: لقحت الحرب بيننا وبينك، فإن نصرنا الله عليك جردناك من السلاح الذي استخدمتموه في العدوان، ويسرنا لكم أن تحيوا معنا آمنين على أموالكم وأعراضكم، وتولينا نحن عبء الدفاع عنكم إذا تعرض لك أحد بسوء. وغرضنا أن تستبينوا حقيقتنا، وتتكشف لكم خبيئتنا، ثم كلفناكم في نظير ذلك بعض المال الذي ننفقه في الدفاع عنكم وعن شعائركم.

هذه هي الجزية التي كثر اللغط فيها، وهذه هي ملابسات فرضها [١]، أنها لا تُفرض على محايد آثر البعد - ابتداءً - عن مصارعتنا !! وإنما تُفرض على مَنْ قرر قتالنا، أو أعان بنفسه أو ماله المعتدين علينا. والناظر إلى آية الجزية يرى أنها أحصت مثالب مَنْ ضُربت عليهم، وكشفت عن فقدانهم للإيمان بالله واليوم الآخر، واقترافهم فنون المعاصي، وخروجهم جملة من سنة الأنبياء، وجاء في صفاتهم - بعد ذلك - أنهم يؤمنون بسياسة تكسير المصابيح، ونشر الظلام، ويريدون إطفاء نور الإسلام: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة :٣٢].

وحينما أمر الإسلام بقتال الكافر من اليهود والنصارى؛ لأنهم لم يؤمنوا إيمانًا صحيحًا يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم، فقد شهد القرآن بأنهم فقدوه بهدم ركنه الأعظم وهو التوحيد، وأما اليوم الآخر فالفريقان يخالفان فيه المسلمين [٢].

﴿ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ فلا يتبعون شرعه في تحريم

---

(١) التفسير الموضوعي للشيخ الغزالي رحمه الله (ص٤٦).

(٢) فإنهم يقولون: إن حياة الآخرة روحانية محضة، يكون فيها أهلها من الناس كالملائكة. ونحن نؤمن بأن الإنسان يكون فيها إنسانًا لا تنقلب حقيقته، بل يبقى مؤلفا من جسد وروح، ويتمتع فيها الناجون بجميع نعيم الأرواح والأجساد وتكون أرواحهم أقوى. وليس في التوراة التي في أيدي اليهود والنصارى بيان صريح للبعث والجزاء بعد الموت، وإنما فيها وفي مزامير داود -عليه السلام- إشارات غير صريحة.

المحرمات. وسواء كان المقصود بكلمة ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ : هو رسولهم الذي أرسل إليهم، أو هو محمد ﷺ، فالفحوى واحدة.

ذلك بأن الآيات التالية فسرت هذا بأنّهم يأكلون أموال الناس بالباطل، وأكل أموال الناس بالباطل محرم في كل رسالة، وعلى يد كل رسول. وأقرب النماذج لأكل أموال الناس بالباطل هو المعاملات الربوية، وغير ذلك.

وأما ما يقال في أهل الكتاب هذا الزمان، ولا سيما أهل أوروبا، فإنّهم أبعد خلق الله عن كل ما في أناجيلهم من الزهد والسلم، ولكنهم بعد الإسراف في الشهوات، والطغيان في العدوان، والإلحاد في الأديان، طفقوا يبحثون في حقيقة الأديان، فتظهر لهم أنوار الإسلام، والمرجو أن يهتدوا في يوم من الأيام.

وأما كونهم «**لا يدينون بدين الحق**»؛ أي: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنّهم على دين، فإنه دين غير الحق؛ لأنه إما دين مبدَّل؛ وهو الذي لم يشرع أصلاً، وإما دين منسوخ قد شرعه الله، ثم نسخ بشريعة محمد ﷺ فيبقى التمسك به غير جائز. فأمره بقتال هؤلاء، وحثه على ذلك؛ لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس؛ بسبب أنّهم أهل كتاب فيحسنون فيهم الظن بأنّهم على علم وهداية !!!

﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾ أي: المال الذي يكون جزاءً لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين كما سبق توضيح ذلك. ﴿ عَن يَدٍ ﴾ حتى يبذلوها في حال ذلهم وعدم اقتدارهم، ويعطوها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادمًا ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أي: ذليلون حقيرون مهانون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة، ولا نصرهم على المسلمين.

ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنيم الأشعري [1] قال: كتب لعمر بن الخطاب

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٨٣/٢).

رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعمر - أمير المؤمنين - من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا، وذرارينا، وأموالنا، وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديرًا، ولا كنيسة، ولا قلابة [١]، ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خُرب منها، ولا نحيى منها ما كان خططا [٢] للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، وأن لا نمنع كنائسنا أن ينْزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابَها للمارة وابن السبيل، وأن ننْزل مَنْ مرَّ بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوى في كنائسنا ولا منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم غشًّا للمسلمين، ولا نظهر شركًا، ولا ندعو إليه أحدًا، ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس. ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة، ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكنى بكناهم، ولا نركب السروج [٣]، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئًا من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجز مقادم رؤوسنا، وأن نلزم زيَّنا حيثما كنا، وأن نشد الزنانير [٤]، على أوساطنا، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا، وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طريق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا إلا ضربًا خفيفًا، وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء في حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين ولا بعوثًا [٥]، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق

---

(١) مكان خاص للتعبد عند النصارى.

(٢) أي: ما كان المسلمون بحاجة إليه.

(٣) **السروج**: جمع سرج، وهو ما يوضع على ظهر الفرس ليركب.

(٤) شيء يشبه الحزام يربطه الرهبان على أوساطهم. ولا تخرج شعانين: أي رجالاً منتفش الشعور فيكون ذلك علامة عليهم. ولا بعوثًا: أي جنودًا، والمراد: لا نخرج جنودًا في وجه الحق **(لسان العرب)**.

(٥) **ولا نخرج شعانين**: أي رجالاً منفشي الشعور؛ فيكون ذلك علامة عليهم.

المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرفيق ما جرى عليه سهام المؤمنين، وأن نرشد المسلمين، ولا نطلع عليهم في منازلهم.

قال: فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه: ولا نضرب أحدًا من المسلمين. شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان. فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا، فلا ذمة لنا، وقد حلَّ منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق [١].

ولأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنّهم يدعون من يقاتلونَهم إلى إحدى ثلاث: إما الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف، من غير فرق بين كتابي وغيره.

خاتمة :

يقول بعض علماء الإحصاء البشري العام: إن عدد المسلمين قد بلغ أربعمائة مليون نسمة [٢]، أو يزيد، ويقول الدكتور مراد هوفمان [٣] في كتابه: (**ديانة في صعود**): إن الديانة الوحيدة التي يزيد معتنقوها؛ هي الديانة الإسلامية.

فهل يرضون لأنفسهم وهم يملكون من بقاع الأرض ما يزيد على مساحة أوروبا كلها أضعافًا، أن يكونوا أذل وأحقر وأجبن من اليهود والصهيونية الذين لا يبلغون عشر عشرهم، وهم يرونَهم يقدمون على انتزاع فلسطين منهم ؟!!!

ويرون مع هذا أن حرم الله - تعالى - وحرم الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - مهددان بالخطر بعد ثالثهما وهو: المسجد الأقصى، اغتصب ودُنِّس بأقدام أبناء القردة والخنازير، وهم ساكنون ساكتون، ودينهم يوجب عليهم إعادة دار الإسلام، وحكم الإسلام، إلى ما كان

---

(١) **ولا بعوثًا** :أي جنودًا، والمراد: لا نخرج جندًا في وجه الحق. (لسان العرب).

(٢) بل إن عدد المسلمين قد زاد على المليار، ولكنهم غثاء كغثاء السيل كما أخبر النبي ﷺ.

(٣) مفكر إسلامي ألماني.

عليه في سالف الأيام، فمم يخافون ؟!! وعلى أي شيء يحرصون ؟!!! ولِمَ يعيشون ؟!!!

فيا أيها المسلمون تدبروا قول ربكم: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧]، وقوله: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد :٧]، وقوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر :٥١]، وقوله: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ [النساء :١٤١]، وقوله: ﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ [الحج :٤٧] ولكنكم نقضتم عهده، وقوله: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور :٣١]، وقوله: ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران :١٣٩].

ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

١ - حرمة المساجد بصفة عامة وحرمة المسجد الحرام بصفة خاصة.

٢ - أن الغنى والفقر بمشيئة الله - تعالى -؛ وهما مقترنان بالعلم والحكمة.

٣ - مشروعية الجهاد لأعداء الدين الحق؛ وهو الإسلام ممتدة إلى يوم القيامة.

٤ - الجزية مشروعة؛ وهي واجبة على من بقى على دينه يدفعها كل عام.

٥ - الجزية ليست ظلمًا، بل هي مساهمة في الحفاظ على الدولة التي يعيشون تحت لوائها.

* * *

النداء الثالث
المال الحرام وعواقبه

يقول الله - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ والرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة:٣٤، ٣٥].

صلة الآيات بما قبلها :

هاتان الآيتان متصلتان بسياق الكلام في أهل الكتاب متممتان له، مقررتان لموعظة عامة تقتضيها المناسبة، وذلك بأن ما تقدم في هذا السياق أن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وأنهم ما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا، فعبدوا غيره من دونه. فناسب أن يبين مع هذا شيئًا من سيرة جمهور هؤلاء الرؤساء ليعرف المسلمون حقيقة حالهم، والأسباب التي تحملهم على محاولة إطفاء نور الله - تعالى -، وأن أكثرهم يعبدون أهواءهم وشهواتهم.

معاني المفردات والتراكيب :

﴿ الأَحْبَارِ ﴾ : جمع حَبْر، وهو العالم المتبحر، وقد اشتهر عبد الله بن العباس - رضي الله عنهما - بأنه حبر الأمة.

﴿ والرُّهْبَانِ ﴾ : جمع راهب، وهو المنقطع للعبادة، قال - تعالى -: ﴿ ورَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد :٢٧]. وقد حرمت الرهبانية في الإسلام؛ لقول النبي ﷺ: «**لا رهبانية في الإسلام**»[1].

---

(١) كشف الخفاء (٥٢٨/٢)، تذكرة الموضوعات (٩٨٩) . وهو ليس بحديث ، انظر : الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث للغزي ص (٥١٦)، تحقيق الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد . (ط/ دار الراية ، الرياض) .

﴿ لَيَأْكُلُونَ ﴾ : أي: يأخذونها وينتفعون بها كما ينتفعون بالأطعمة والأشربة.

﴿ الْبَاطِلِ ﴾ : أي: يأخذونها بغير وجه شرعي.

﴿ يَكْنِزُونَ ﴾ : أصل الكنْز: الجمع والضم، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة، ألا ترى قول الرسول ﷺ: «**الا اخبركم بخير ما يكنِز المرء: المرأة الصالحة**» [1] أي: يضمه لنفسه ويجمعه.

﴿ **الذَّهَبَ والْفِضَّةَ** ﴾ : سمي الذهب ذهبًا؛ لأنه يذهب ولا يبقي، وسميت الفضة بهذا الاسم؛ لأنها تنفض فتتفرق، ومن هذا المعنى قول الله - تعالى-: ﴿ ولَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران :١٥٩].

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أصل البشارة: الإخبار بما يسرّ، ولكنها استخدمت هنا للتهكم والسخرية منهم، أو للمشاكلة.

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: كلمة ﴿ كَثِيرًا ﴾ نكرة، تفيد التكثير والتحقير، فهم من حيث العدد: كثيرون، ومن حيث تَدَنيهم، وبيعهم باقيًا بفانٍ، فهم أهل لحقارة الشأن والمكانة. قال الله - تعالى -: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ومَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ولَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل :٩٦]. وقال ﷻ: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ولِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا واتَّخَذُوا آيَاتِي ورُسُلِي هُزُوًا ﴾ [الكهف :١٠٣-١٠٥].

الثانية: التعبير عن الأكل والصد عن سبيل الله بصيغتي المضارع: ﴿ لَيَأْكُلُونَ ﴾، ﴿ ويَصُدُّونَ ﴾ فيه إشارة إلى أنهم مستمرون في تجديد هذين العملين القبيحين؛ ولهذا فهم يستحقون هذا الوعيد الشديد.

الثالثة: في التعبير عن الكنْز بالمضارع يُفهم منه المداومة على تجديد

---

(١) **ضعيف**: رواه أبو داود، كتاب: الزكاة، باب: في حقوق المال، حديث (١٦٦٤)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود. وانظر: تفسير القرآن العظيم (٣/٣٩٠).

تلك الكبيرة، أما مَنْ كنَز المال عن جهل، ثم عرف ما يجب عليه في المال فعاد إلى صوابه، فبحمد الله تقبل توبته وتبدل سيئاته حسنات كما وعد القرآن الكريم: ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان :٧٠].

الرابعة: الألف واللام في الذهب والفضة للعهد، فيراد بهما ما بلغ نصابًا، ولم تؤد زكاته، أما ما أديت زكاته، فلا يعد كنْزا.

الخامسة: في قوله: ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا ﴾ إشارة إلى أن الإحماء عليها من جميع جوانبها، فتكون نارها أشد مما لو كانت النار من تحتها فقط.

السادسة: ذكر الجباه؛ لأنهم يعبسون في وجوه المحتاجين، ولا يعطونهم حاجتهم، ثم ينحون جنوبَهم عنهم، فإذا بالغوا في الإعراض يعطونهم ظهورهم للإدبار عنهم.

الأحكام الفقهية :

الحكم الأول: في مخالفة الظاهر للباطن[1] :

مخالفة الظاهر للباطن أحد أمرين: فإن كان الباطن أحسن من الظاهر، فهو من الفضل؛ أي: أن صاحبه من المحسنين ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨]. أما إذا كان الظاهر أحسن من الباطن، فهو النفاق. وهذا ما وقع فيه كثير من الأحبار والرهبان؛ لأن ظاهرهم الصلاح والانقطاع للعبادة، وباطنهم خراب، يستحلون ما حرم الله ورسوله كالربا، والرشا،وتحريف الكلم عن مواضعه، ولا يعملون بما افترضه الله عليهم كإحقاق الحق، وإبطال الباطل، والتعفف عن الحرام، فاستوجبوا وعيد الله لهم.

الحكم الثاني: في أكل الأموال بالباطل :

أكل الأموال بالباطل؛ أي: بغير الوجوه الشرعية، كالربا، والرشا، والقمار، والسرقة، والغش، والتلاعب بالنصوص الشرعية، ومن أقدم

(١) الأصل أن يكون المسلم ظاهره كباطنه، وهو المسمى بالعدل وهو ما عليه الكثيرون .

الذين نحو هذا المنحى: أحبار اليهود والنصارى ورهبانهم. وقد فضحهم الحق عز وجل على ألسنة رسله ونصوص كتبه وصحفه. وحتى يضمنوا استمرار ما هم عليه وترويج باطلهم، ما كانوا يسمحون لأحد بإعمال عقله فيما سمع من هذه العبارة، واشتهرت على ألسنة علمائهم العبارة القائلة: «**الغ عقلك واتبعني**».

الحكم الثالث: في الصد عن سبيل الله:

وكان مما ترتب على أكلهم أموال الناس بالباطل: أن الكثيرين انصرفوا عن دين الله - تعالى -، فقد فهموا الدين خطأ، إذ توهموا أن ما يفعله كثير من أحبارهم ورهبانهم هو ترجمة عملية لما ينادي به الدين، والدين من هذا كله براء.

وقد أجرموا جُرمين عظيمين: وهما: الكفر بما أنزل الله - تعالى -، وصد الناس عن معرفة دين الله الحق وإتباعه، والوعيد الذي يناسب جرائمهم ينتظرهم، وهو قوله - تعالى -: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران :١٨٨].

الحكم الرابع: في منع الزكاة:

من الحكم البالغة: ابتلاء الأغنياء بالمال، وابتلاء الفقراء بالفقر. فالواجب على مَنْ ملك نصابًا أن يؤدي زكاته، وأن ينفق المال في سائر الوجوه المشروعة. وقد حارب أبو بكر رضي الله عنه مانعي الزكاة حتى ردَّهم إلى الصواب.

وقد وردت نصوص كثيرة بشأن البخل بالواجبات المشروعة في المال. قال الله عز وجل: ﴿ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران :١٨٠]. وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاع أقرع، له ذبيبتان يطوقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمته، يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا** صلى الله عليه وسلم: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾» [(١)].

(١) رواه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة، حديث (١٤٠٣)، والنسائي، حديث (٢٤٢)، وأحمد في مسنده (٢/٣٥٥)، حديث (٨٦٤٦)، والبيهقي في الكبرى (٤/٨١)، حديث (٧٠١٥).

المعنى العام :

يحذر الله - تعالى - عباده المؤمنين من مسلك الأحبار والرهبان الذين استحلوا أموال الناس بغير وجه شرعي فأخذوها وتصرفوا فيها بوجوه الانتفاع. قال - تعالى -: ﴿ ولا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وتُدْلُوا بها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة :١٨٨]. وفي إسناد هذه الجريمة إلى الكثيرين منهم دون جميعهم من دقائق تحرى الحق عبارات الكتاب العزيز، وفي ذلك: إشارة إلى أن البعض منهم على فطرته النقية، فلا يستحل حرامًا ولا يحرم حلالاً. وقد أشار الله إلى المجرمين منهم، فقال: ﴿ ولَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء :٤٦]. ﴿ وتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ والْعُدْوَانِ وأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة :٦٢]. ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ ومَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ومَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾[المائدة:٥٩].

وأكلهم للأموال كان بالوجوه التي لم يشرعها الله ﷻ كالرشا والربا، ونحو ذلك؛ وهو أنواع:

منها: ما يبذله كثير من الناس لمن يعتقدون أنه عابد قانت لله، زاهد في الدنيا؛ ليدعو لهم الله - تعالى - ليقضي حاجاتهم وشفاء مرضاهم، لاعتقادهم أن الله يستجيب دعاءه ولا يرد شفاعته. والدعاء مشروع، دون أخذ المال به أو عليه. والرجاء باستجابته حسن، واعتقاده بالجزم جهل.

ومنها: ما يأخذه سدنة قبور الأنبياء والصالحين، والمعابد التي بُنيت بأسمائهم: من الهدايا والنذور، وهذا يُنافي معنى التوحيد المجرد، والنصارى: يبنون الكنائس والأديرة بأسماء القديسين والقديسات، فتحبس عليها الأراضي والعقارات، وتقدم لها النذور والهدايا تقربًا إلى تلك الأسماء أو المسميات. وهذا وما قبله، مما اتبع المسلمون فيه سننهم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، مصداقًا للحديث الصحيح [1]. والوقوف على

---

(١) وهو الذي جاء عن النبي ﷺ: ((**لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه وراءهم**)) . فقالوا: اليهود والنصارى ؟ قال: ((**فمن ؟**)). البخاري (٢٤٥٦) ، ومسلم (٢٦٦٩) .

الدير والكنيسة عندهم كالوقوف على المسجد عندنا قربة حقيقية.

وأخذ المال وإعطاؤه في بناء المعابد حق في أصل كل دين سماوي، وإنما البدع الوثنية في المعابد، هي المتعلقة بعبادة مَنْ ينسب إليه المعبد، ويوضع له فيه قبر أو صورة أو تمثال فيدعى فيه مع الله تارة، ومن دونه تارة، ويُنذر له وحده آونة، ومع الله آونة.

فهذه بدع تتبرأ منها أديان الأنبياء الموحاة إليهم من الله ﷻ، والنفقة فيها كلها من الباطل، وآكلوها من رؤساء الدين وسدنة المعابد، من الذين يأكلون أموال الناس بالباطل.

ومنها: ما هو خاص بالنصارى، بل ببعض فرقهم كالأرثوذكس والكاثوليك؛ وهو ما يأخذونه جُعلاً على مغفرة الذنوب أو ثمنًا لها، بما يسمونه سرّ الاعتراف، وهو أن يأتي الرجل أو المرأة القسيس، أو الراهب المأذون له من الرئيس الأكبر بسماع أسرار الاعتراف ومغفرة الذنوب، فيخلو به أو بها، فيقص عليه الخاطئ ما عمل من الفواحش والمنكرات بأنواعها؛ لأجل أن يغفر له؛ لأن من عقائد الكنيسة: أن ما يغفره هؤلاء: يغفره الله، - تعالى - الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وهذا الغلو في استغلال سلطتهم الدينية ترتب عليه فساد كبير في استباحة الفواحش، وكبائر المعاصي. والاعتراف في الأصل: لم يوضع له ثمن، ولكن سوء استعمال بعض رجال الدين له أغراهم بجعله وسيلة لسلب المال.

ومنها: ما يؤخذ على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال. فأولو المطامع مع الأهواء يفتوْن الملوك والأمراء وكبار الأغنياء بما يساعدهم على إرضاء شهواتهم، والانتقام من أعدائهم، أو ظلم دعاتهم بضروب من الحيل. ومن هذا النوع ما خاطب الله - تعالى - به أحبار اليهود خطاب الاحتجاج والتوبيخ بقوله - تعالى -: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وتُخْفُونَ كَثِيرًا وعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ ولا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام :٩١].

ومنها: ما تيسر لهم من سلبه من أموال المخالفين لهم في جنسهم، أو

دينهم من خيانة وسرقة وغيرها، كما قال - تعالى -: ﴿ومِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ومِنْهُم مَّنْ إن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ويَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران :٧٥]. يعنون أن الله حرم عليهم أكل أموال إخوانهم الإسرائيليين بالباطل دون الأميين وهم العرب، وكذا سائر الطوائف[1].

ومنها: الربويات حتى الفاحش منها، وهو فاشٍ عند اليهود والنصارى، واليهود جبابرة المرابين في العالم كله، وأحبارهم يفتون في أكل الربا من غير إخوانهم الإسرائيليين، ويأكلونه معهم مستحلين له بنص من توراتهم المحرفة، بدلاً من نهيهم عنه، وقد تكرر في التوراة: النهي عن أخذهم الربا.

﴿ويَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وطرق صدهم عن الإسلام، فهي تختلف باختلاف الزمان والمكان والإمكان، وقد انفرد النصارى بالعناية بهذا الصد من طريق السياسة والدعوة معًا ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة :٣٢]، وكل ذلك داخل في معنى الآية؛ لأن الخبر بصيغة المضارع يدل على الحال والاستقبال، وهي من علام الغيوب. وهم لا يقنعون بصد أهل مللهم عن الإسلام، بل يصدون أهله عنه ويدعونهم إلى دينهم الملفق من الأديان الوثنية القديمة.

وقسمت أممهم ودولهم البلاد الإسلامية إلى مناطق نفوذ دينية تبشيرية تابعة لمناطق النفوذ السياسية الدولية. وقد اشتدت ضراوتهم بعد الحرب العامة، بسلب البلاد الإسلامية ما بقي من استقلالها، وتعميم النصرانية في جميع أهلها.

وعقدوا للتنصير عدة مؤتمرات دولية، وألفوا كتبًا كثيرة للتمهيد له. وقد سخروا بعض أمراء المسلمين المستبعدين، وشيوخ الطرق والفقه المنافقين لشد أزرهم.

وما يفيد المسلم من قراءة مثل هذه الآية، ومن تفسير علماء الألفاظ

---

(١) وفي هؤلاء يقول البوصيري في سرد ما خالف اليهود فيه الحق، وادعوا أنه مشروع لهم!

وبأن أموال الطوائف حللت ... لهم ربا وخيانة وغلولاً

والروايات لها إذا لم يعرف مضمونها التفصيلي العملي في عصره ويسعى لتدارك خطبه ؟

هذا وإن أشهر طرقهم في الصد عن الإسلام فظاعة وقبحًا وإهانة، لهو الطعن في النبي الأعظم - صلوات ربي وتسليماته عليه - وفي السنة المطهرة، وفي القرآن الكريم، وأشر منه: المدارس الموبوءة التي تفسد عقائد النشء الذي يتربى فيها. ولكن أكثر الأمصار لا يعقلون كنه مفاسدها وسوء عاقبتها في الدين والأدب وسياسة الأمة واستقلالها. فهؤلاء الأحبار والرهبان، ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم أموال الناس بغير حق، وصدهم الناس عن سبيل الله.

﴿ والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والْفِضَّةَ ﴾ : قال: ابن عمر: **(الكنْز)** هو المال الذي لا يؤدي زكاته، وعنه أنه قال: ما أدي زكاته فليس بكنْز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهرًا لا تؤدي زكاته فهو كنْز. وقد روى هذا عن ابن عباس وأبي هريرة وغيرهم.

﴿ ولا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ : أي طرق الخير الموصلة إلى الله. وهذا هو الكنْز المحرم: أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع الزكاة [1]، أو النفقات الواجبة للزوجات، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا ﴾ أي: على أموالهم.

﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فيحمى كل دينار أو درهم على حدته ﴿ فَتُكْوَى بها

---

(١) **زكاة العين واجبة بأربعة شروط:** الحرية، والإسلام، وتمام الحول، وكمال النصاب خاليًا من الدين . والنصاب: مائتا درهم أو عشرون دينارًا . واشتراط الحرية؛ لأن العبد ناقص الملك . والإسلام؛ لأن الزكاة طهر، والكافر لا يلحقه تطهر؛ ولأن الله - تعالى - قال: ﴿ **وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ فخوطب بالزكاة مَنْ خوطب بالصلاة، واشتراط الحول؛ لأن النبي ﷺ قال: ((**ليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول**)) . واشتراط النصاب؛ لأن النبي ﷺ قال: ((**ليس في أقل من مائتي درهم زكاة، وليس في أقل من عشرين دينارًا زكاة**)) .

ولا يُراعى كمال النصاب في أول الحول، وإنما يُراعى عند آخر الحول؛ لاتفاقهم أن الربح في حكم الأصل . يدل على هذا أن من كانت معه مائتا درهم فاتَّجر فيها، فصارت آخر الحول ألفا، أنه يؤدي زكاة الألف، ولا يستأنفون للربح حولاً .

جِبَاهُهُمْ وجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ﴾ في يوم القيامة، كلما بردت، أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم: توبيخًا :﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾. فما ظلمكم الله ولكن ظلمتم أنفسكم، وعذبتموها بهذا الكنْز.

وذكر الله - تعالى - هاتين الآيتين: انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين: إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي نفعًا، بل يناله منه الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجه في الواجبات، والسياق يمهد لغزوة العسرة كذلك حينذاك ، وجاءت سورة براءة لتغريل المجتمع بقوة، وليميز الله الخبيث من الطيب. هذا؛ وإن أكبر أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر، وتمكن أعدائهم من سلب ملكهم، ومحاولات إبعادهم عن دينهم: هو بخل أغنيائهم، وجبن ملوكهم وأمرائهم وزعمائهم، فقد جعلوا أعداءهم سادةً لهم يأتمرون بأمرهم، وينتهون بنهيهم، فأصبح عزهم ذلاً، وعاقبة أمرهم خسرًا، وقد تقدم بيان هذا المعنى في تفسير معنى الجهاد عند تفسير قوله - تعالى -: ﴿وأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[البقرة :١٩٥] [1].

فلو أسس الأغنياء مدارس لتعليم العلوم الدينية والدنيوية لاستغنوا عن مدارس دعاة النصرانية، ولأمكن للمصلحين منهم إذا تولوا إدارتها أن يخرجوا لهم رجالاً يحفظون للأمة دينها وملكها، ويعيدون إليها مجدها، ويجذبون أقوام هؤلاء المعتدين عليها إلى الإسلام، فيدخلون في دين الله أفواجًا، ويعود الأمر كما بدأ.

* * *

(١) وبمناسبة الواقع المرّ نقول: ((اللهم اخذل من خذل الإسلام والمسلمين، ونسألك يا جبار السموات والأرض ان تنْزل عليهم بأسك الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وان تجعلهم عبرة للمعتبرين بحولك وقوتك، يا من تقول للشيء كن فيكون)) .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

١ - ليس في الإسلام ما يسمون برجال الدين، بل دعاة إلى الحق، وإصلاح للأمم.

٢ - التظاهر بالدين لابتزاز أموال الخلق شر أنواع النفاق.

٣ - منع الزكاة والواجبات المالية مبشر بعذاب أليم.

٤ - إساءة القدوة سبب انصراف الخلق عن الدين الحق.

٥ - أن الجزاء من جنس العمل: «**إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ**».

* * *

النداء الرابع
النهي عن خذلان الدين

يقول الله - تعالى -:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[التوبة :٣٨-٤١].

صلة الآيات بما قبلها :

لما أمر الله - تعالى - المؤمنين بقتال المشركين في قوله: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[التوبة :٣٦]، وتكاسل بعضهم عن الجهاد وآثر الحياة الدنيا؛ وبخهم الحق ﷻ بسبب هذا القعود، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾.

معاني المفردات والتراكيب :

﴿ مَا لَكُمْ ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ على ذلك التقاعس عن الجهاد.

﴿ انفِرُوا ﴾: أصل النفر: التنقل من مكان إلى مكان لأمر يحدث، ومنه قوله - تعالى -: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾[الإسراء :٤٦]. ومنه: نفر الحجيج من عرفات.

﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾: أي: تباطأتم؛ والتباطؤ: ضد النفير. قال المفسرون: اثاقلتم إلى نعيم الأرض، وهو توبيخ على ترك الجهاد، وأصله: **(تثاقلتم)** أدغمت

التاء في الثاء؛ لقربها منها، واحتاجت إلى همزة الوصل؛ لأجل النطق بالساكن، والعرب لا تبدأ بالساكن، ولا تقف على المتحرك.

أنها ثقل الأرض، ومطامع الحياة والخوف عليها، ثقل اللحم والدم والتراب، وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل [1]. فوبخهم الله، وعاب عليهم الإتيان للدنيا على حساب الآخرة.

﴿ سَكِينَتَهُ ﴾ : أي: الطمأنينة التي يجعلها في قلوب عباده المؤمنين، وأن النصر حليفهم.

﴿ وكَلِمَةُ اللَّهِ ﴾ أي: التوحيد، وأن وعده للمؤمنين لا يتخلف.

﴿ كَلِمَةَ الَذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: باطلهم الذي يعتقدونه، ويسيرون عليه.

﴿ خِفَافًا ﴾ أي: شبابًا كاملي الاستطاعة.

﴿ وثِقَالاً ﴾ أي: كهولاً وشيوخًا ذوي استطاعة محدودة.

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: الألف واللام في كلمة **(الأرض)** للجنس، فتشمل بقاعًا كثيرة، وفي هذا إشارة إلى أن التقاعس عن الجهاد حدث، وسيحدث في بقاع متعددة في مستقبل هذه الأمة. وواقع الأمة المخزي أكبر دليل على هذا.

الثانية: في تعْليق العذاب الأليم على عدم النفير دليل على وجوب الجهاد، وأنه ماضٍ إلى يوم القيامة، وإن رغمت أنوف أناس عندهم من الجرأة على الله، وعلى القرآن والسنة ما يجعلهم يحملون النصوص ما لا تطيق، ويباركون طريقة الدعة والاستسلام.

الثالثة: التنكير في قوله: ﴿ قَوْمًا ﴾ للتعظيم، وهم جديرون بهذه الصفة، إذ أنّهم اعتصموا بالله، ولاذوا بجنابه الأقدس، وطهروا الأرض من بقايا الغثاء والخونة والعملاء، نسأل الله - الحي القيوم ذا الجلال والإكرام - أن يستأصل شأفتهم، وأن لا يدع منهم من باقية.

---

(١) من أقوال الشيخ سيد قطب .

الرابعة: التنكير في قوله: ﴿شَيْئًا﴾: للتقليل، وإذا انتفى توهم أن يضروا الله شيئًا قليلاً، فانتفاء الضرر الكثير أولى وأثبت.

الخامسة: اسم الموصول في قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للذم والتوبيخ، فالرسول ﷺ لم يقترف ما يدعوهم إلى إخراجه طريدًا، بل كل الذي فعله: أن كان أول المؤمنين بالتوحيد والدعوة إليه، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[البروج :٨].

السادسة: كذلك التنكير في قوله: ﴿بِجُنُودٍ﴾ للتكثير والتعظيم، فالجنود لا يعلم عددهم إلا الله - تبارك وتعالى -، كما أن كل واحد منهم عظيم، وبقدرته أن يزلزل الأرض من تحت أقدام المشركين ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الحديد :٢١].

السابعة: في قوله الله - تعالى -: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ إشارة واضحة إلى أنه لا عذر لأحد من المتقاعسين عن الجهاد، وذلك أنه يندر أن نجد مسلمًا قد عجز عن المشاركة في الجهاد بالنفس والمال، أو بالنفس، أو بالمال، أو بالكلمة... إلخ.

الثامنة: في مجيء كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ نكرة، دلالة على عظم الأجر والثواب الذي أعده الله - تعالى - لعباده المجاهدين في سبيله، ففي الحديث الصحيح: أن في الجنة مائة درجة أعُدت للمجاهدين [1]. والقرآن ناطق بهذه المنْزلة العظيمة، قال الله - تعالى -: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران :١٦٩-١٧١].

غزوة تبوك وسببها :

روى ابن سعد وغيره: أن الأنباط الذين كانوا يتنقلون بين الشام

---

(١) يشير إلى ما رواه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله، حديث (٢٧٩٠)، وأحمد في مسنده (٣/٣٣٥)، حديث (٨٤٠٠)، وابن حبان في صحيحه (١٦/٤٠٢)، حديث (٧٣٩٠). وانظر: أمالي الشجري (٢/٢٩)، ومختصر العلو (١٠١).

والمدينة للتجارة قد بلغوا المسلمين: أن الروم قد جمعت جموعًا، وأنّهم جذبوا إلى جانبهم قبيلتي لخم وجذام، وغيرهما من نصارى العرب الذين كانوا تحت إمرة الروم، ووصلت طلائعهم إلى أرض البلقان، فندب النبي ﷺ الناس إلى الخروج [١].

ولماذا كانت المواجهة مع الروم ؟

إن الروم قوم غزاة لا تربطهم بأهل البلاد في الشام والحجاز وبيت المقدس إلا صلات القهر المادي والأدبي. ودخلت الروم النصرانية ليس إيمانًا بها، وإنما لتجعل لها مبررًا للبقاء الدائم على أهل هذه البلاد، ومن ثم فقد غيَّرت الروم مبادئ النصرانية ببعض العقائد الوثنية، وأقامت الأسوار حول هذه العقيدة. وعندما ظهر نور الإسلام الذي يبدد ظلمات الوثنية والعصبية، راقبته الروم عن بعد في البداية، لكن عن قلق وخوف على مستقبلها في هذه البلاد التي تجمع ثرواتها وتحظى بخيراتِها. ثم بدأت المواجهة بعد أن قام الرسول ﷺ بإرسال الرسل إلى الملوك والأمراء. لكن هيهات هيهات، أن ترضى الروم بإتاحة الفرصة لدعوة الإصلاح، فأقامت الأسوار الكثيفة في وجه الدعاة، وأمرت بقطع أعناقهم، وهذا ما حدث على يد تابعهم شرحبيل بن عمرو الغساني.

وكانت مؤتة التي أرقت مضاجعهم، وما إن مرّ عام على مؤتة، وبعد انتصار المسلمين في مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، حتى جمع قيصر الجموع؛ لمواجهة هذه الدعوة في عُقر دارها؛ لاستئصالها قبل أن يصل نورها إلى البلاد فيستيقظ النوام، ويفيق السكارى، وهذا ما يخشاه أصحاب الدعوات الباطلة أن توجد الدعوة التي تسمح للعقول أن تفكر، وللنفوس أن تختار [٢].

وقد كان غزوة تبوك في شهر رجب سنة تسع باتفاق الرواة.

وكان ﷺ قلما يخرج إلى غزوة إلا وَرَّى بغيرها - مكيدة في الحرب

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٠٤، ٤٠٥).

(٢) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي – رحمه الله تعالى - .

- إلا ما كان من هذه الغزوة، فقد صرَّح بها؛ لبعد الشقة وشدة الزمان، إذ كان ذلك في شدة الحرّ، حين طابت الثمار، وحُبب إلى الناس المقام. كما وجد المنافقون فرصتهم للتخذيل، فقالوا: لا تنفروا في الحر، وحذروهم بأس الروم، وكان لهذه العوامل المختلفة أثرها في تثاقل بعض الناس عن النفرة.

الأحكام الفقهية :

الأول: في حكم الجهاد :

الأصل في الجهاد أنه فرض كفائي، إذا قام به البعض، سقط الوجوب والإثم عن الباقين، وإذا لم يقم به أحد أثم الجميع، فإذا طالب الإمام المسلمين بالخروج إلى الجهاد، صار فرض عين على كل مسلم مستطيع، ومن لمْ يقم بما وجب عليه استحق هذا الوعيد المذكور: ﴿ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ . هذا بالإضافة إلى تكالب الأمم الكافرة على الأمة الإسلامية إذا ما قعدت عن الجهاد، وتسرب الوهن إلى قلوب أبنائها، ونزع المهابة من قلوب أعدائها [1].

الحكم الثاني: في عذاب المعرضين :

ليس المراد من العذاب الوارد في الآية: أنه عذاب الاستئصال الذي وعد الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يرفعه عن أمته بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[الأنفال :٣٣]. بل المراد بالعذاب عذاب الله ينْزل بمن أعرض عن الجهاد وكان مستطيعًا، أما من كان الجهاد في حقهُ فرضًا كفائيًا، أو كان غير مستطيع، فهم غير معنيين بهذا الوعيد ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت :٤٦].

الحكم الثالث: في حكمة مشروعية الجهاد :

لم يشرع الجهاد؛ لعجز الإله ﷻ عن إنفاذ مراده، - تعالى - الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، بل شرع لمقاصد عظيمة من أبرزها: إعلاء كلمة الله

(١) قد سبق ذكر الحديث: ((**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها..**)).

- سبحانه وتعالى - وأن تكون كلمة الكافرين هي السفلى، ورفعًا لدرجات المجاهدين الصابرين. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة :١٠٩]، [آل عمران :١٦٥]، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[يس :٨٢]، وقوله - جل وعلا -: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[آل عمران :١٤٢].

الحكم الرابع: في جنود الله - تعالى - :

قدرة الله ﷻ لا حدود لها، وجنوده لا يحيط بهم إلا هو، وهم أنواع: فمنهم:الملائكة،ومنهم: الريح، ومنهم: عذاب الاستئصال، ومنهم: الأمراض، ومنهم : الخسف ، ومنهم : الزلازل والبراكين . قال الله - تعالى -: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾[المدثر :٣١]، وقال - جل وعلا -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[الأحزاب :٩].

المعنى العام :

يلفت الرحمن الرحيم نظر عباده المؤمنين إلى ما يجب عليهم فعله من مقتضيات إيمانِهم، فقال بأسلوب مصبوغ بصبغة العتاب: يا أيها الذين آمنوا ما الذي دعاكم إلى التخاذل والتثاقل إلى الأرض، بعد أن دعاكم القرآن والسنة إلى الجهاد المستمر في سبيل الله ؟ هل آثرتم الحياة الفانية على الحياة الباقية ؟!! إن راحة الآخرة لا تنال إلا بالصبر على نصب الدنيا ومشقاتِها [(١)]. ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾. فكما نرى: الدنيا مهما طالت بأصحابها، فهي إلى زوال، والمغرور من أغتر بها، ولا يليق بعاقل أن يؤثرها على الآخرة [(٢)].

﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ إن الخطاب لقوم

(١) وفي هذا المعنى قال ﷺ لعائشة - رضي الله عنها - وقدْ طافت راكبة: ((**اجرك على قدر نصبك**)) . [أخرجه البخاري] .

(٢) لذا قال ﷺ: ((**وما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم اصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع**)) ((**وأشار إلى السبابة**)) [أخرجه مسلم في صحيحه، والإمام أحمد في المسند، تفسير القرآن العظيم (٤٠١/٣)] .

معينين في موقف معين، ولكنه عام في مدلوله: (**العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**). والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده، فهو شامل لعذاب الدنيا والآخرة جميعًا. ففي الدنيا عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح، والغلبة على الأعداء، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين، وهم مع ذلك يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد، ويقدمون على مذابح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة.

﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يقومون على العقيدة، ويؤدون ثمرة العزة، ويستعلون على أعداء الله، فإن لم يكن ذلك بأيديكم، فلابد أن يكون بأيدي غيركم ﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ [الحج:٤٧]. وقال- عز شأنه -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة :٥٤]. ﴿ **وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا** ﴾ أي: ولا يقام لكم وزن باستعذابكم الذل، فإنكم به تموتون في اليوم ألف مرة، ولا تقدمون ولا تؤخرون في الحساب؛ لأنه غني عنكم، ولن يبلغ أحد ضره ولا نفعه، بل هو القاهر فوق عباده. وقيل: إن المراد: ولا تضروا رسوله بتثاقلكم، فإنه عصمه من الناس، وكفل له النصر بقرينة الآية.

﴿ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ ومنه إهلاككم إن أصررتم على العصيان، وتوليتم عن إقامة دينه، وإتمام نوره. ويضرب الله المثل التاريخي من الواقع الذي يعلمونه على نصرة الله لرسوله - بلا عون ولا ولاء - والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء.

﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** ﴾ أي: إلا تنصروا رسوله ﷺ فالله غني عنكم لا تضروه شيئًا، فقد نصره [1] في أقل ما يكون بقدرته وتأييده،

---

(١) ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضوع، فإن النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا، ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليه . والنصر الثاني: نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه: أن يرد عنه عدوه ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع .

إذْ أجمع المشركون على الفتك به. وقيل: فقد نصره بصاحبه في الغار بتأنيسه له، وحمله على عنقه، ووفائه معه، ووقايته بنفسه، ومواساته بماله.

قال الليث بن سعد: ما صحب الأنبياء - عليهم السلام - مثل أبي بكر الصديق. وقال سفيان بن عيينة: خرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبة التي في قوله: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾.

﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ هو ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ ﴾ هو: ثقب في الجبل؛ وهو غار ثور المعروف عندكم في أسفل مكة، ولم يكن مكثه في الغار ثلاثة أيام إلا تشريعًا للأمة، وتعليمًا لهم بأخذ الحيطة في الأمور المتأزمة.

إن تحركات النبي ﷺ كلها لم تكن إلا بوحي إلهي، وذلك أنه لما تآمرت قريش على قتله، وانتدبت من كل قبيلة شابًّا جلدًا، وفي يد كل واحدٍ سيف صارم، لتنْزل عليه تلك السيوف دفعة واحدة، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يستطيع بنو هاشم محاربة كل العرب، فتقدم ديته إليهم وينقضي الأمر.

ودخلت المسألة في دور التنفيذ، فحاصر هؤلاء الشبان بيت النبي ﷺ وأحاطوا به. ومع هذا فهو ثابت الجأش، رابط القلب، فنَزل عليه جبريل يبلغه أمر ربه إياه بالهجرة. فامتثل الأمر، وخرج شاقًّا وسط تلك الجموع، ذارًّا فوق رءوسهم حفنة من رمل، وهو يتلو قوله - تعالى -: ﴿ وجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾(يس :٩). فاجتاز تلك الصفوف ولم يره أحد. ولم يكن اختباؤه ﷺ خوفًا من المشركين، بل تعليم للأمة من أخذ الحيطة في الأزمات، وليقف على مقاصد قريش وحركاتها، ولينكشف ما اعتزموا عليه.

وما قوله - تعالى -: ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إلا من إطلاق السبب على المسبب، وذلك لما تفاقم الإيذاء، ولم يبق ثمَّ علاج، واستعصى الداء على الدواء، فكان أمر الله بالهجرة إلى دار صالحة التربة؛ لبذر بذور

الإسلام، فأخصبت الدعوة الإسلامية فيها (**المدينة المنورة**)، وضربت جذورها في أعماق الأرض، وأخذت أصولها وفروعها في السموق إلى السماء، كما قال - تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم :٢٤، ٢٥]. فتكونت الدولة الإسلامية. وخرجت بجيوشها المظفرة، وفتحت البلاد، ومُصرت الأمصار، وحطمت دول الكفر، وأتت عل بنيان الطغيان من القواعد، فهدمته وجعلته هشيمًا تذروه الرياح.

﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ ﴾ [(١)] يقول النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه لما اشتد قلقه: «**لا تحزن**». الصديق رضي الله عنه لا يجزع على نفسه، ولكن على صاحبه. يقول له: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. والرسول ﷺ يهدئ من روعه، فيقول له: «**يا ابا بكر ما ظنك برجلين الله ثالثهما، يا ابا بكر لا تحزن إن الله معنا**» [(٢)].

ومن كان الله - تعالى - معه بعزته التي لا تغلب، وقدرته التي لا تقهر، فهو حقيق أن لا يستسلم لحزن.

ومعية الله - سبحانه وتعالى - للمتقين والمحسنين في قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [(٣)] [النحل:١٢٨].

---

(١) تكرر الظرف (**إذ**) في المواضع الثلاثة مبدل بعضها من بعض في غاية البلاغة . . فهو يذكرهم بوقت خروجه ﷺ مهاجرًا مع صاحبه بما كان من شدة الضغط والاضطهاد ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾، ويتلو تذكيرهم بإيوائه ﷺ مع صاحبه إلى الغار لا يملكان من أسباب الدفاع عن أنفسهما شيئًا . ثم يخص بالذكر وقت قوله لصحابه: ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ فالعبرة لهم - في هذه الذكريات الثلاث أن الله - تعالى - غني عن نصرهم لرسوله بقدرته وعزته، وأن الرسول ﷺ غني عن نصرهم له بنصره عز وجل وتأييده، وبقدرته على تسخير غيرهم له من جنوده وبعض خلقه .

(٢) رواه البخاري أوله بدون قوله: لا تحزن . كتاب: المناقب، باب: مناقب المهاجرين وفضلهم منهم أبو بكر، حديث (٣٦٥٢)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي بكر، حديث (٢٣٨١)، والترمذي، حديث (٣٠٩٦).

(٣) ومن آثار معية الله للمتقين المحسنين: معيته - سبحانه وتعالى - لموسى وهارون عليهما السلام إذْ أرسلهما إلى فرعون . فأظهرا الخوف من بطشه بهما: ﴿ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه :٤٥، ٤٦] .

فكان خاتم النبيين أكمل منهما إذ لم يخف من قومه الخارجين في طلبه للفتك به . وكان للصديق أسوة حسنة، إذْ خاف على خليله وصفيه..... =

ومن آثار تلك المعية ما جاء في قوله - تعالى -: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾: وإنزال السكينة؛ أي: الثبات والطمأنينة والسكون المثبت للفؤاد. وقد ذكر ثلاث مرات: **أولاها**: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الفتح :٤]، وكان نزولها بعد صلح الحديبية الذي فتن فيه المؤمنون، فكان من عناية الله بهم أن ثبت قلوبهم. فهذه سكينة خاصة بالمؤمنين، بيّن حكمها العليم الحكيم، وفيها إشارة إلى جنود الملائكة. **وثانيها**: قوله - تعالى -: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[الفتح :٢٦].

والأشهر في تفسير هذه الحمية أنها: ما أباه المشركون في كتاب الصلح من بدئه بكلمة: بسم الله الرحمن الرحيم، ومن وصف محمد ﷺ فيه برسول الله، وتعصبهم لما كان يبدأ أهل الجاهلية: «**باسمك اللهم**»، وهذا ما ساء رسول الله ﷺ بلا شك، كما ساء كراهة المسلمين لهذا الصلح.

ولكنه لم يكن صلحًا عظيمًا، كان أول باب لفتح حرية مكة، وحرية الدعوة الإسلامية في المشركين. فأنزل الله سكينته عليه في قبول شروطهم. وأنزلها على المؤمنين بعد إذ هموا بمعارضته ﷺ[(١)].

وثالثها: ما تقدم من هذه السورة في سياق غزوة حنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فهذه سكينة مشتركة بين الرسول والمؤمنين، سكن بها ما عرض له ﷺ من تأثير هزيمتهم،

= وقد شرفه الله في ذلك اليوم الفذ بصحبته، وإنما نهاه ﷺ عن الحزن لا عن الخوف، ونُهي موسى وهارون عن الخوف لا عن الحزن.

وقد قال بعض العلماء: إذا رُزقت الأنس بالله - تعالى - شُغلت به عما سواه - جل شأنه - فلا تشعر عندئذ بخوف من غيره. قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف :٥٤]. وقال ﷻ شأنه: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[فاطر :٢].

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/٢٤٦-٢٥٨).

وسكن ما عرض لهم من الاضطراب لهزيمة المنافقين كما تقدم. ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ فقد جاء ذكر الجنود في سورة براءة مرتين: في ذكر أحداث غزوة حنين، وفي قصة الغار في طريق الهجرة.

وجاء ذكر الجنود في الكلام عن غزوة الأحزاب في قوله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[الأحزاب :٩]. وقد كانت هذه الجنود التي أرسلت في حنين، لتخذيل المشركين وتأييد المؤمنين وقد تحقق مثل هذا في غزوة بدر. ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[الأنفال :٩]، وفي الكلام عن غزوة أحد في سورة آل عمران. فإذا كانت الملائكة في هذه المواضع قد نزلت لتأييد المؤمنين على المشركين وتخذيلهم. ومن المعلوم أن يكون للرسول ﷺ هذا الوعد المحقق؛ تحقيقًا لما وعده الله من النصر على جميع أعدائه، وإظهار دينه على الدين كله.

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾: كلمة الذين كفروا بالكفر وما يترتب عليه، هي الساقطة المخذولة، وقد كانوا يظنون أنهم قادرون على تحقيق مآربهم فخذلهم الله، ولم يتم لهم مقصودهم، ونصر الله رسوله بدفعهم عنه.

وكلمة الله تشمل: القدرية والدينية، وهي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الروم :٤٧]. ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾[غافر :٥١]. ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات :١٧٣]. فدين الله: هو الظاهر العالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة، والسلطان الناصر.

﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾: وقد جاء ذكر اسم العزيز [١] في أكثر من

---

(١) وقد وضع الشيخ أحمد العقاد دعاءً لاسم العزيز جاء فيه: إلهي، أنت العزيز الذي تستند إليك حاجات العباد، وأنت العظيم الذي يصعب الوصول إلى عزتك، وأنت للقلوب مراد، وأنت الجليل الواحد الأحد الذي لا نظير لك، وتنزهت عن المثل والأمثال والأنداد . صفِّ قلبي من الأغيار، حتى لا يرى عزيزًا سواك، وأشهدني معنى العزة في نفسي..... =

ثمانين موضعًا، ونلاحظ في الآيات التي ورد فيها اسم العزيز: أنه في الغالب يقترن اسم العزيز باسم الحكيم؛ وذلك لأن معنى العزيز يفيد الغلبة والقوة والامتناع، ولما كانت هذه الغلبة القوية تحتاج إلى أن يضبطها الحق والعدل والحكمة، ناسب أن يقترن الوصف بالحكمة بيانًا لذلك.

ثم قال - تعالى - لعباده المؤمنين مهيجا لهم على النفير في سبيله، فقال: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وثِقَالاً ﴾ أي: في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال. ﴿ وجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي: ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس. ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: الجهاد في النفس والمال؛ خير لكم من التقاعد عن ذلك؛ لأن فيه رضا الله - تعالى -، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه.

ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

١ - النهي عن تقاعس المؤمنين وقعودهم عن الجهاد.

٢ - الشرع والعقل يحذران من إيثار الفانية على الباقية.

٣ - التهديد بالعذاب الدنيوي والأخروي لمن تركوا الجهاد.

٤ - النصر من عند الله العزيز الحكيم وإن كنا قد أمرنا بتحقيق أسبابه.

٥ - مشروعية الهجرة لمن مُنع من مباشرة التكاليف الشرعية في

= لتكون روحي فداك، واجمعني على العارفين الذين منحتهم العزة، فكانت قلوبُهم بعزتك عامرة، وأفض عليَّ من أسرار عزتك حتى تصير نفسي إليك طائرة، واجعلني وإخواني داخلين تحت قولك: ﴿ ولِلَّهِ العِزَّةُ ولِرَسُولِهِ ولِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إنك على كل شيء قدير. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. وصدق الله العلي الكبير حين أضاف العزة إلى نفسه، فقال: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وسَلامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ (١٨١) والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢]، لموسوعة الأسماء الحسنى. د/ أحمد الشرباصي ١٠/٧٣.

موطنه.

٦ - الإشارة إلى فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة؛ وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصحبة الجميلة [١] وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ كافرًا؛ لأنه منكر للقرآن الذي صَرَّح به.

٧ - فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

٨ - أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين مع أن الأولى إذا نزل بالعبد أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة.

٩ - أن الجهاد له صور متعددة، فقد يكون بالنفس والمال، وقد يكون بالنفس فقط، وقد يكون بالمال فقط ، وقد يكون بالكلمة ، فالبيانُ أَحَدُّ من السنان ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة :٢٨٦].

* * *

(١) قال الشاعر :

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقال غيره :

وقائـل كيـف تفارقتمـا ... فقلت قولاً فيه إنصاف

لم يك من شكلي ففارقت ... والناس أشكال وآلاف

النداء الخامس
أبواب التوبة مفتوحة

قال الله - تعالى -:

﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة :١١٧-١١٩].

معاني المفردات والتراكيب :

﴿تَّابَ اللَّهُ﴾ : أي: وفق عباده للسير في طريق التوبة واستكمال شرائطها.

﴿سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ : أي: ساعة الضيق والاحتياج الشديد.

﴿يَزِيغُ قُلُوبُ﴾ : أي: تميل عن الصواب وعن جادة الطريق.

﴿رَءُوفٌ﴾ : أي: بلغت رحمته بهم مبلغًا عظيمًا.

﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ : فالأرض ضاقت عليهم على الرغم من اتساعها.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ : فبعد أن كانوا يحبونها ويؤثرونها على ما سواها، إذ بهم تبرموا منها، ولم يفكروا إلا في الخروج من هذا الذنب الذي اقترفوه.

﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ داوموا على تقواكم واعملوا بمقتضاها.

﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ : أي: على منهجهم [١].

صلة الآيات بما قبلها :

أخبر الحق جل وعلا في الآية السابقة: أنه المالك للسموات والأرض؛ المدبر

(١) راجع هذه المواد اللغوية في لسان العرب.

لعباده، بالإحياء والإماتة، وأنواع التدابير الإلهية؛ فإذا كان لا يُخل بتدبيره القدري؛ فكيف يخل بتدبيره الديني المتعلق بإلهيته، ويترك عباده سدىً مهملين؛ أو يدعهم ضالين جاهلين؛ وهو أعظم توليه لعباده ؟!!! فلهذا قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ يُحْيِي ويُمِيتُ ومَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ ولا نَصِيرٍ ﴾[التوبة :١١٦]. أي: ليس لكم من ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم؛ أو (نصير) يدفع عنكم المضار [١].

ومن آثار توليه لخلقه: أن وفق الرسول ﷺ وأصحابه للسير في طريق التوبة وقبولها منهم، فقال: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ والْمُهَاجِرِينَ والأَنصَارِ ﴾.

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: الألف واللام في ﴿ النَّبِيِّ ﴾ للعهد؛ فيراد به النبي المعهود - محمد ﷺ - وهو سيد الأولين والآخرين، كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «**انا سيد ولد آدم ولا فخر**» [٢]. فهو الإمام القدوة في الدارين، كما يفيد ذلك قوله - تعالى -: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ والْيَوْمَ الآخِرَ وذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب :٢١].

الثانية: أن اسم الموصول في قوله - تعالى -: ﴿ الَذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ... ﴾ للمدح والثناء؛ فهم جديرون بهذا الثناء وذاك المدح فقد ثبتوا على الحق في النوازل والشدائد على حين تردد غيرهم؛ وآثروا الفانية على الباقية، وقد نعى القرآن على الكثيرين هذا الصنيع فقال: ﴿ ... بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) والآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقَى ﴾ [الأعلى :١٦، ١٧]، وقال: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ومَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ولَنَجْزِيَنَّ الَذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل :٩٦].

الثالثة: في مجيء كلمة ﴿ العُسْرَةِ ﴾ معرفة: إشارة إلى أن العسر قد بلغ بهم مبلغًا عظيمًا؛ وهذا ابتلاء؛ لتمحيص المؤمنين وتمييزهم عن غيرهم، قال - تعالى -: ﴿ ولِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَذِينَ آمَنُوا ويَمْحَقَ الكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٥٤).

(٢) سبقت ترجمته وتخريجه.

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران :١٤١، ١٤٢].

الرابعة: يؤخذ من قوله - جل وعلا -: ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ... ﴾ أن رحمة الله - تعالى - سبقت غضبه، وأنه قد أكرم خلقه ووفقهم للسير في طريق التوبة بعد أن كانوا على مقربة من زيغ القلوب. ويؤخذ من النص الكريم: أن أفضل العبادة انتظار الفرج. قال - تعالى -: ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف :١١٠].

الخامسة: أن المعاصي تزيل النعم، وتبدل الأحوال من يسر إلى عسر، حتى إن الأرض على اتساعها تُرى في أعينهم ضيقة، وأضحت صدورهم في حرج، ونفوسهم في ضيق، وتقلصت آمالهم الدنيوية، كما قال - تعالى -: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف :٩٦].

سبب النزول [١]:

أخرج البخاري ومسلم والإمام أحمد وأشهر مدوني التفسير المأثور من طريق الزهري قال: أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، إلا في غزوة تبوك غير أني تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها. إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى أجمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

---

(١) هذه القصة تفيض لها عبرات المؤمنين، وتخشع لها قلوب المتقين. وكان الإمام أحمد لا يبكيه شيء من القرآن كما تبكيه هذه الآيات، وحديث كعب في تفصيل خبرهم فيها. وإن العبرة بهذه القصة لا تتم إلا بذكر أصح الروايات وأوسعها في شرح ما بين الله من حالهم فيها. وهو حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر. وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر من حين تخلفت عنه في تلك الغزوة. والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة.

وكان رسول الله ﷺ قلما يُريد غزوة إلا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد، واستقل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقل عددًا كبيرًا، فجلى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان -.

قال كعب رضي الله عنه فَقَلَ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى به ما لم ينْزل فيه وحي من الله عز وجل غزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وإنا إليه أصغر، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولا أقضى شيئًا، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إن أردت. فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا، وقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه.

فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئًا. فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو. فهممت أن أرتحل فأدركهم، وليت أني فعلت. ثم لم يقدر لي ذلك، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصًا عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله.

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك !!! فقال وهو جالس في القوم في تبوك: ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه.

فقال له معاذ بن جبل: قلت: والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا؛ فسكت رسول الله ﷺ قال كعب بن مالك: بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني ذنبي فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدًا ؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا راح عني الباطل حتى عرفت أني لم أنج منه بشيء أبدًا، فأجمعت صدقة، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلاً - فقبل رسول الله ﷺ منهم علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله. حتى جئت، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي: «**تعالَ**» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «**ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك**». فقلت: يا رسول الله والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت: لئن حدثتك بحديث صدق تجد عليّ فيه، إني لأرجو فيه عُقبى من الله !!

والله ما كان لي من عُذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «**اما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك**». فقمت وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي: ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلفون، فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ.

قال: فوالله ما زالوا يؤنبونني؛ حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي. ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا ما قلت،وقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لي فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي.

قال: ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس - أو قال: تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأمَّا صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما. وأما أنا، فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة وأقول في نفسي هل حرَّك شفتيه بردّ السلام أم لا ؟

ثم أُصلي قريبًا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، فإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال على ذلك، من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ - فسلمت عليه، فوالله ما ردّ على السلام !! فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك الله - تعالى - هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال: فسكت، قال: فعُدتُ فنشدته فسكت، فَعُدت فنشدته قال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

وبينما أنا أمشي بسوق المدينة، إذا بنبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة، يقول: مَنْ يدل على كعب بن مالك ؟!! فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني فرفع إلى كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبًا، فقرأته، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك [1]. فقلت حين قرأتُها. وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرتُها.

حتى مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربنها. وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

---

(١) أي نخفف من عنائك وعزلتك، ولكنه ﷺ صبر على الابتلاء، ولم يلحق بديار الكفر فقد يفتنونه عن دينه ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة :٥].

فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلالاً شيخ ضائع، وليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه ؟

قال: «**لا، ولكن لا يقربنكم**» فقالت: إنه والله ما به من حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكي من لدن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه. فقلت: والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول إذا استأذنته وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا عشر ليال: فكمل لنا خمسون ليلة، من حين نُهى عن كلامنا.

قال: ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا. فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا.. ضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صارخًا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب ابن مالك أبشر !!! فخررت ساجدًا وعرفت أن قد جاء الفرج (**من الله**).

فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر. فذهب الناس يبشروننا، وذهب إلى صاحبي مبشرون. وركض إلى رجل فرسًا، وسعى ساعٍ من أسلم قبلي، وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس.

فلما جاء الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوتُهما إياه ببشارته والله ما أملك غيرهما يومئذ !!! فاستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أؤم رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجًا بعد فوج يهنئوني بالتوبة ويقولون: ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس.

فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره. قال: فكان كعب رضي الله عنه لا ينساها لطلحة.

قال كعب رضي الله عنه فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال: وهو يبرق

وجهه من السرور: «**أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك**» قلت: أمن عندك يا رسول الله ؟ أم من عند الله ؟ قال: «**بل من عند الله**». وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه.

فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع من مالي إلى الله وإلى رسول الله ﷺ: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**». فقلت: إني أمسك سهمي الذي بخيبر. وقلت يا رسول الله، إنما أنجاني الصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت.

قال: فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله - تعالى -.

والله ما تعمدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. وأنزل الله: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ والْمُهَاجِرِينَ والأَنصَارِ... ﴾ إلى قوله: ﴿ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾.

قال كعب: فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ أن أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه. فإن الله قال للذين كفروا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد. فقال: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ الفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة :٩٥، ٩٦].

أي مؤمن يملك عينيه أن تفيض من الدمع، وقلبه أن يجف ويرجف من الخوف إذا قرأ أو سمع هذا الخبر، وتأمل ما فيه من العبر، التي لا يمكن بسطها إلا في كتاب مستقل، وتلك هي قصة الثلاثة الذين خلفوا ثم تاب الله عليهم.

قال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: ﴿ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ مع محمد ﷺ وأصحابه. والحق: أنها عامة، وأن الثلاثة الذين نزلت في قصتهم يدخلون في عمومها دخولاً أوليًّا.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لا يصلح الكذب في جد ولا هزل، ولا يعد أحدكم صبيه شيئًا ثم لا ينجزه، اقرأوا إن شئتم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فهل تجدون لأحد رخصة في الكذب [١].

الأحكام الفقهية :

الحكم الأول: في وجوب التوبة :

لا يخلو المكلف من مباشرة الخطأ، عمدًا كان أو خطأ وسهوًا ونسيانًا، وهذا أمر في جبلة الثقلين جميعًا. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا فقال: «**كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**» [٢]. وقد أمر الشرع الحكيم بالتوبة من هذه المعاصي فقال عز شأنه: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور :٣١]، وقال - جل وعلا -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾ [التحريم :٨]. وقال صلوات الله وسلامه عليه: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إليه في اليوم مائه مرة**» [٣].

الحكم الثاني: في أنواع التوبة :

والتوبة أنواع؛ لتنوع الذنوب التي يقع فيها المكلفون :

فالنوع الأول: هو التوبة من كبائر الذنوب، قال - تعالى -: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء :٣١]، وحديث الرجل الذي قتل تسعا وتسعين نفسًا ثم أكمل المائة، وقد وجد

---

(١) راجع تفسير المنار (٥٧/١١) . وقد ثبت الحديث عند البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧)، وأحمد في مسنده (٣٨٤/١) بلفظ: «**إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عن الله صديقًا، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**».
أما أثر ابن مسعود ، فرواه البخاري في الأدب المفرد ، ص (١٤٠) ، حديث (٣٨٧) ، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٣٦/٥) ، حديث (٢٥٦٠١) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) **صحيح:** رواه الطبراني بعضه في الكبير (٩٨/٩)، حديث (٨٥٢٣)، والبيهقي في الكبرى (٢٠١/٤)، حديث (٤٧٨٨)، والبخاري في الأدب المفرد (١٤٠/١)، حديث (٣٨٧)، وابن المبارك في الزهد (٤٩١/١)، حديث (١٤٠٠) . وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٨١) .

أمامه باب التوبة مفتوحًا... هذا الحديث مشهور وقد أخرجه كثير من كتب السنة [١].

والنوع الثاني: هو التوبة من الصغائر، وهي دون التي سبقتها في الجرم، ولم يرد فيها وعيد شديد كالنوع السابق، وهي مغفورة بالمحافظة على الطهارة والصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، والعمرة إلى العمرة.. وقد جاءت أحاديث كثيرة في هذا الشأن، منها قوله ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينها إذا اجتنبت الكبائر**» [٢]، وحديث: «**أرأيتم لو أن نَهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه** [٣] **شيء؟**» . قالوا: لا. قال: «**هكذا الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا**» [٤].

وأما النوع الثالث: فهو التوبة من الهفوات اليسيرة التي يسميها كثير من العلماء: خلاف الأولى... وقد وقع فيها بعض الأنبياء، ولا يقدح في عصمتهم - عليهم الصلاة والسلام - كقول إبراهيم عليه السلام عن زوجته حينما أراد الجبار المصري أن ينتزعها منه: هي أختي، وقال حينما سئل عمن كسَّر الأصنام: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء :٦٣]، وباشره الرسول ﷺ في قبول الأعذار من المتخلفين عن غزوة تبوك أخذًا بظواهرهم، فعاتبه الحق ﷻ قائلاً: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة :٤٣].

الحكم الثالث: في تأصيل القاعدة الشرعية: «**إذا ضاق الأمر اتسع**».

فأحوال الخلق متقلبة من يسر إلى عسر، ومن سعة إلى ضيق، ومن

---

(١) المطالب العالية ح (٣٤٧٦)، مجمع الزوائد (٢/٢١٢) .

(٢) رواه مسلم، كتاب: الطهارة، باب: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، حديث (٢٣٣)، والترمذي، حديث (٢١٤)، وأحمد في مسنده (٢/٣٥٩) حديث (٨٧٠٠) .

(٣) أي: عرقه ووسخه .

(٤) رواه البخاري، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة، حديث (٥٢٨)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا، حديث (٦٦٧)، والترمذي، حديث (٢٨٦٨)، والنسائي، حديث (٤٦٢) .

غنى إلى فقر، ومن قوة إلى ضعف، وخلاف ذلك، وقد كان الصحابة - رضي الله عنهم - قبل غزوة تبوك في أحوال لا بأس بها. ثم جاء الإعسار: ماديًا ومناخيًا ونفسيًا واجتماعيًا إلخ، وذلك ابتلاء من الله لخلقه، فلما ثبتوا في السراء والضراء، وفوضوا أمورهم إلى الله - تعالى - ففرج عنهم وشرح صدورهم لمتابعة النبي ﷺ ولم يتخلف عنه إلا القليل.

الحكم الرابع: في مشروعية التعذير :

التعذير مختلف باختلاف الأشخاص وتنوع أخطائهم، وهو من الأمور النسبية التي تختلف من شخص إلى آخر. فبينما نجد من يُصلحه الحبس مثلاً [1] نجد شخصًا ثانيًا يناسبه الغرم المادي، ونجد ثالثًا يناسبه: الاعتزال والاجتناب كما حدث مع الثلاثة الذين خلفوا. وهذا كله يثمر مع من في قلوبهم حياة وأحاسيس مرهفة. أما من ماتت قلوبهم وسقمت مشاعرهم، فلا يجدون ثمرة من وراء هذا كله.. وقد وصفهم القرآن بأنهم موتى، قال - تعالى -: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر :٢٢]، وقال - جل وعلا -: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد :١٢].

الحكم الخامس: في التوفيق والخذلان :

كل شيء في الوجود بمشيئة الله - تعالى -، قال - تعالى -: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج :١٦]، وقال ﷻ: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر :٦٢]، وقال - تبارك وتعالى -: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر :٢]، وهؤلاء التائبون المذكورون في سورة التوبة، وفقهم الله ﷻ في صدق اللجوء إلى الله - تعالى - والسير في طريق التوبة ثم تقبلها منهم بفضله ورحمته، وخذل من خذل، كالمنافقين والكافرين، فحلفوا بالله كاذبين وفضحهم القرآن حيث قال عنهم: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ

(١) حبسًا عفيفًا كما كان في عهد صدر الإسلام لا الحبس المعاصر الذي لا يقره عقل ولا دين.

لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ ﴾(التوبة :٩٥، ٩٦).

المعنى العام :

يخبر - تعالى - أنه من لطفه وإحسانه **(تاب على النبي)** محمد ﷺ **(والمهاجرين والأنصار)** فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، ورقاهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات، ولهذا قال :﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ ﴾ أي: خرجوا معه؛ لقتال الأعداء في وقعة **(تبوك)**. وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدو، مما يدعو إلى التخلف.

فاستعانوا بالله - تعالى -، وقاموا بذلك :﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي: تنقلب قلوبهم ويميلوا إلى الدعة والراحة والسكون، ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم. وزيغ القلوب: هو انحرافها عن الصراط المستقيم. فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كفرًا، وإن كان في شرائعه كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها إما قصَّر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي.

وقوله :﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: قبل توبتهم ﴿ إِنَّهُ بِهِم رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ومن رأفته ورحمته أن منَّ عليهم بالتوبة، وقبلها منهم وثبتهم عليها ﴿ وعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ أي: كذلك لقد تاب الله على الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهو «**كعب بن مالك**»، وصاحباه، وقصتهم مشهورة معروفة في الصحاح والسنن.

﴿ حَتَّى إِذَا ﴾ حزنوا حزنًا عظيمًا و﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي: على اتساعها ورحبها ﴿ وضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاق عليهم الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء.

﴿ وظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾ أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا

ينجي من الشدائد ويُلجأ إليه إلا الله وحده لا شريك له فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربّهم وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة خمسين ليلة.

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: أذن في توبتهم ووفقهم لها ﴿ لِيَتُوبُوا ﴾ أي: لتقع منهم، فيتوب الله عليهم. ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ ﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ متصف بالرحمة العظيمة التي لا تزال تنْزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد: أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وأمتنَّ عليهم بها حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم، وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

ومنها: أن العبادات الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب، ولا يحرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله - تعالى - تعلقًا تامًّا، وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أن من لطف الله - تعالى - بالثلاثة أن وسمهم بوسم، ليس بعار عليهم فقال: ﴿ خُلِّفُوا ﴾ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، أو خُلِّفوا عمن بُتَّ في قبول عذرهم أو في ردّه، وأنّهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل تخلفوا.

ومنها: أن الله - تعالى - مَنَّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالإقتداء بهم

فقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي: يا أيها الذين آمنوا بالله وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله - تعالى - باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه.

﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقًا، خالية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، قال الله - تعالى -: ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة :١١٩].

ما ترشد إليه الآيات الكريمة:

١ - إذا أحب الله عبدًا استعمله في توبته وطاعته.

٢ - الطاعة الحقة: أن يكون المرء عابدًا لله على كل حال.

٣ - أن النفع والضر بيد الله - تعالى -.

٤ - التوفيق والخذلان من الله ﷻ وأسبابُهما من الخلق.

٥ - الإخلاص مقره القلوب وكذا النفاق، ولا يعلم الغيب إلا الله - سبحانه-.

٦ - لا فرار للمذنبين من الله إلا إليه - جل شأنه -.

٧ - وجوب تقوى الله على كل حال.

* * *

النداء السادس
وجوب مقاتلة الكفار

يقول الله - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[التوبة :١٢٣].

صلة الآية بالتي قبلها :

لما نعى الله - تعالى - على المتخلفين عن رسول الله ﷺ وعدم مشاركتهم في الجهاد فقال :﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ... ﴾[التوبة :١٢٠]. وبين أن كل عمل كبيرًا كان أم صغيرًا مدخر ثوابه عند الله - تعالى - وفي هذه الآية ألزمهم بقتال الكافرين وأوجبه عليهم لما يترتب عليه من أجر عظيم فقال :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ... ﴾.

معاني المفردات والتراكيب :

﴿ قَاتِلُوا ﴾ : هناك فرق بين القتل والقتال: فالقتل هو: إزهاق الروح بلا سبب شرعي، وإذا كان هناك سببٌ شرعيٌ: فالقتل يسمى: حدًّا أو قصاصًا. والقتال: هو الأخذ بأسباب القتل ومقدماته، وإن لم يحدث قتل.

﴿ يَلُونَكُم ﴾ أي: القريبين منكم: الأقرب فالأقرب.

﴿ غِلْظَةً ﴾ أي: قوة وعزة، كما قال - تعالى -: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾ [المائدة :٥٤]

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: يخاطب الله المؤمنين؛ لأنهم هم الذين يستجيبون لنداء الحق وأمره ونهيه أما مَنْ عداهم فهم بمثابة الموتى، قال - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾[فاطر :٢٢].

الثانية: الأمر بالقتال: مرحلة دعوية، بعد دعوتهم إلى الإسلام، فإن أبوا تعرض عليهم الجزية، فإن أبوا فالقتال [1]. وبهذا يُعلم أن الإسلام قد جاء هاديًا وليس جابيًا، وأنه ما انتشر بحد السيف كما يزعم المغرضون من الكافرين وأذنابهم وأبواقهم [أرانا الله فيهم عجائب قدرته].

الثالثة: الأمر بمقاتلة الذين يلوننا قبل غيرهم فيه دليل على أن الدعوة إلى الإسلام تسير على منهج سويّ مكتمل، قال- تعالى- : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل :٨٩]. كما أننا لو بدأنا بالأبعد فالبعيد لتمكن الكافرون من تبديد قوى المسلمين بلا ثمرة تذكر. ولو لم تكن هناك حكمة يدركها العقل، لكان الأمر الإلهي كافيًا، فشعار المؤمنين :﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة :٢٨٥].

الأحكام الفقهية :

الحكم الأول: وجوب قتال الكفار :

صراحة الأمر تقتضي الوجوب، ولا قرينة تصرفه إلى حكم آخر كالاستحباب ونحوه، فإن الكافرين المجاورين لو تركوا وشأنهم لكانوا سببًا في تحجير الدعوة إلى الإسلام، وحالوا دون بلوغها إلى العالمين، مع أن الله أخبر وكلامه صدق. أن الإسلام سينتشر في أرجاء العالمين.. قال - جل شأنه - :﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة :٣٣].

الحكم الثاني: في سمات المقاتلين :

هناك سمات لابد أن يتصف بها المجاهدون كإخلاص النية، ومتابعة الشرع الإسلامي، كما قال ﷻ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ

---

(١) وهذا ليس إجبارًا لهم على الدخول في الدين، بل لأنهم صدوا غيرهم عن أن تبلغهم دعوة الحق. ومن أبرز الأدلة على ذلك: أن عاش أهل الكتاب في كنف الخلافة الإسلامية آمنين، يأخذون حقوقهم أكثر من انتمائهم للدولة اليهودية أو النصرانية على مر الأجيال، وقد شهد المعتدلون منهم بذلك .

فَانتَهُوا واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾[الحشر :٧]، ومن أبرز هذه السمات (**أو الخصائص**) أن يجد الكفار من المجاهدين غلظة وبأسًا شديدًا، حتى لا يفلت زمام النصر من أيديهم. وهذا مندرج تحت قول النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف..**»[(١)].

الحكم الثالث: في بيان المعية :

والمعية أنواع فالمعية الحسية وهي التي تدرك بالحواس وهذه من صفات المخلوقين. والمعية المعنوية: بالعلم والإرادة والقدرة، وهذه متحققة من الله - تعالى - لجميع الخلق.. ومعية التوفيق: وهذه منحها الله ﷻ للمتقين فقط.. قال - تعالى - :﴿ والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإنَّ اللَّهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت :٦٩]. وقال - جل وعلا - :﴿ إنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا والَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[النحل :١٢٨].

المعنى العام :

هذه الآية قاعدة من قواعد القتال التي نزلت أهم قواعده وأحكامه في هذه السورة والتي قبلها. أمر الله المؤمنين: أن يقاتلوا الكفار الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام.

ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم، وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب. ثم شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم: يدل على ذلك السورة كلها.

ولماذا وصفوا بأنهم يلوننا ؟ لأنهم قدموا من إيطاليا واحتلوا الأناضول والشام، وجاورونا في جزيرتنا شرَّ جوار، كانوا هم السادة وغيرهم العبيد !!!.

وما الذي جاء بهم ؟ إنه الاستعمار وأطماعه !!!. وماذا يريدون من العرب ؟ يريد منهم ترك رسالتهم أو الاحتباس بها وراء الحدود التي

(١) وأيضًا مندرج تحت قوله تعالى:﴿ وأَعِدُّوا لَهُم مَّا استَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ومِن رِّبَاطِ الخَيْلِ ﴾[الأنفال:٦٠].

بلغوها في هجومهم على دنيا الناس !!!

فهم لا يحترمون عقيدة أخرى غير ما يعتنقون، ولا يتركون لها حق الحياة، فإذا كان ما لديهم باطلاً، وكان ما لدينا هو الحق، فكيف ندافع عنه إلا بنفوسنا وأموالنا ؟!!!

إن هذا عقد أخذ على أتباع موسى وعيسى ومحمد - صلى الله عليهم وسلم - أن يُعلوا كلمة الله، ويخفضوا كلمة الكفر ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ؟!!!

إن الشرطي مكلف بمقاومة المجرم ولو لجأ إلى السلاح، وقد قيل :

إذا لم تكن إلا الأسنّة مركبا فما حيلة المُضطر إلا ركوبًا !![1]

هذه القاعدة سادت عليها الفتوحات الإسلامية، تواجه من يلون دار الإسلام ويجاورونها مرحلة مرحلة.

وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار، كما قال- تعالى-: ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا... ﴾[الشورى :٧]. وقال لأهل مكة: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾[الأنعام :١٩]. أي من بلغته دعوته، بل أمره أن يخص الأقرب إليه في النسب أولاً: من أهل بلده أم القرى فقال: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾[الشعراء :٢١٤].

وترجيح البدء بالأقرب فالأقرب: معقول من وجوه كثيرة، ولذلك كانت القاعدة فيه عامة: في الدعوة، والقتال، والنفقات، والصدقات، وكذا في المجلس؛ فكان ﷺ يعطي مَنْ على يمينه وإن لم يكن أفضل الجالسين، ثم الذي يليه، وأمر بأن يأكل الإنسان مما يليه... إلخ.

﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أي: وليجد الكفار منكم خشونة في القتال، فإن المؤمن الكامل: هو الذي يكون رفيقًا بأخيه المؤمن، غليظًا على عدوه الكافر، كما قال ﷻ :﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[المائدة :٥٤]، وقال :﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[الفتح :٢٩]، وقال - جل

(١) انظر التفسير الموضوعي للشيخ الغزالي - رحمه الله - .

وعلا - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [التوبة :٧٣، والتحريم :٧].

والغلظة على المقاتلين في زمن الحرب من مقتضيات الطبيعة والمصلحة، وتنكيرها في الآية للتعظيم أو التحقير، ومن هذا يؤخذ أن لأولي الأمر أن يحددوها في كل زمان ومكان مع ما يتفق مع المصلحة. وقد حرم الإسلام فظائعها، كما تقدم في تفسير سورة الأنفال [١]، وقد بلغت فظائعها عند الذين يسمون أنفسهم متحضرين.

ما أشبه الليلة بالبارحة !! بالأمس القريب هز وجدان العالم: قتل الطفل محمد الدرة برصاص أحفاد القردة والخنازير وهو يحتمي بوالده عن مفترق الشهداء عند مدينة غزة.

وبالأمس القريب أيضًا حيث بكت القلوب ودمعت العيون وسط حالة من الألم والإحباط إلا من رحمة الله - سبحانه وتعالى - على إثر مقتل الطفلة الصغيرة «**إيمان حجوا**» والتي لم تتجاوز الأربعة الأشهر.. وعشرات بل مئات في عمر الزهور يقتلون ويُبادون بأحدث الأسلحة الأمريكية على أيدي شياطين اليهود ؟! الصورة مأساوية أكثر مما فعله التتار والكل قابع في مبركه بلا حراك [٢].

أين عصابة الأمم المتحدة؟!!! أين حقوق الإنسان التي يتشدقون بها؟[٣].

يا مَنْ تنادون بحقوق الحيوان.. أين مجلس الأمن ؟!! لقد أصبح لا أمل في

---

(١) قال تعالى :﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال:٥٨]

(٢) إن من يدقق في بواطن الأمور يجد أن كثيرًا من حكام المسلمين هم سبب الخراب والدمار فظاهرهم الإسلام، وباطنهم حرب على الإسلام، هم أعزة على المؤمنين أذلة تحت أقدام الكافرين. يذهب أحدهم مستجديًا ما يسمى بالمعونة الأمريكية، فإن شاء رئيس دولة الكفر العالمي أعطاهم بشرط ضرب الإسلام والمسلمين ، ولا نملك الآن إلا أن نقول في سجودنا «**اللهم أرنا فيهم عجائب قدرتك**» آمين، آمين، آمين يا رب العالمين.

(٣) **هذا الشعار:** كلمة حق أريد بها باطل . فإنهم يجتمعون في مجلس الضلالة فإن وجدوا الحق المدَّعى في جانبهم شرعوا في تنفيذه كما حدث في العراق وأفغانستان، وإن كان الحق في جانب المسلمين المستضعفين استعملوا حق الفيتو **(الاعتراض)** كما حدث في فلسطين وغيرها . عليهم لعائن الجبار ذي القوة المتين **(آمين)** .

ظل عصابة اللوبي اليهودي تعمل في وضح النهار بعد أن كانت في ظلام الليل لإبادة الإسلام والمسلمين في كل بقاع الأرض.. والوقائع أكثر من أن تحصى. وإذا كان صلاح الدين عليه رحمات الله - تعالى - قد ردَّ كيد الصليبين في نحورهم وأخرجهم أذلاء مقهورين، وطهر بيت المقدس من رجس اليهود والنصارى، وعادت مآذنه ترفع الآذان يجوب آفاق السماء، بعد أن ظلت تسعين سنة من الزمان.

والآن يعود إلينا أحفاد صلاح الدين يمثله شعب فلسطين وفي مقدمته الأطفال والشيوخ والنساء، يتحدى قوى البطش والعدوان [1] ويمسح عنا شيئًا من العار والخزي الذي حل بديار المسلمين.

شعب أعزل يقاوم العربات المصفحة والصواريخ والقنابل والطائرات بحفنات من التراب وما تيسر حمله من الحجارة، فإذا بها ترهب شياطين اليهود من زبانية سفاح [صبرة وشاتيلة] وتملأ قلوبهم رعبًا ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء :٢٢٧].

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ الذين يراعون أحكام الله - تعالى - وسننه في خلقه إن الله ﷻ معهم بالمعونة والنصر، ومن أهم ما يجب عليهم: اتقاء التقصير في أسباب النصر والغلب التي بينها الإسلام في الكتاب والسنة والتي تعرف بالعلم والتجارب: كإعداد ما يستطاع من قوة، والصبر والثبات، والطاعة لله ولرسوله ﷺ والنظام، ونبذ التنازع والاختلاف، وكثرة الذكر، والتوكل على الله الذي بيده النفع والضر.

إن أصحاب القرون الثلاثة المفضلة الذين هم خير هذه الأمة لما كانوا في غاية الاستقامة، والأخذ بالأسباب الشرعية، وحسن التوكل على رب العالمين، لم يزالوا ظاهرين على أعدائهم، وكانت الفتوح على أيديهم كثيرة.

---

(١) إن الفتاة ذات الثمانية عشر ربيعًا التي فجرت نفسها دفاعًا عن دينها وأمتها لهي خير من ملايين الرجال الذين لا هم لهم إلا الشهوة والطعام والشراب والسيارات الفارهة، قال الله - تعالى - فيهم وفي أمثالهم: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد :١٢]

ثم أظلتنا ليالي الفتن الحوالك، وتعالت الأهواء، ودبَّ الاختلاف، فطمع فينا الأعداء، وتداعت علينا الأمم ﴿لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم:٤].

يقول كبير الدعاة فضيلة الشيخ محمد الغزالي - عليه رحمة الله- : إذا نظرتُ إلى أول السورة ثم خواتيمها أشعر بالعجب..

فأول السورة براءة من الطاغوت ورجاله العابثين بالمعاهدات. وآخرها: تذكير برحمة الله العامة عندما أرسل نبي الملحمة ونبي الرحمة !!!!

إنه نبي محارب، يتصدى بالسلاح لمن يحملون السلاح، على نحو ما قال شوقي:

الحق في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواءٌ !!!

ولكنه في الوقت نفسه يبحث عن كل شبر في الأرض ويسعى إلى مسح الغبار عن كل جبين، ومحو العنت عن كل محزون مُعْنت﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة :١٢٨].

إنه ما قاتل حبًا في قتال، ولكن كرهًا للتسلط والعدوان. فإذا ضمنت العدالة، وسادت الحرية، وصينت الحقوق، فلا يلجأ إلى الحروب إلا مجرم. من أجل ذلك، ختمت السورة بهذه الآية :﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ [التوبة :١٢٩]. هذه السورة التي قالوا عنها: تضمنت آية السيف !! وأعلنت الحرب على الناس !!!﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف :٥] [(١)].

ما ترشد إليه الآية الكريمة :

١ - الإيمان الحقيقي: يجمع أصحابه بين العقيدة الصحيحة والعمل

(١) والحق يقال: إن من أسباب جرأة هؤلاء الكفرة على الإسلام وأهله: أن كثيرًا من المسلمين شوَّهوا صورة الإسلام النقية إذ لم يعملوا بما يقولون . . . فتوهم المشركون أن الإسلام هو الذي علم أتباعه هذا السلوك المشين (**ولا حول ولا قوة إلا بالله**) .

الصالح.

٢ - الجهاد ماض إلى يوم القيامة... ولو كره المجرمون.

٣ - لابد أن يكون أصحاب الحق أعزاء أقوياء وأهل الباطل أذلاء ضعفاء.

٤ - نصر الله ﷻ للمؤمنين حق لا ريب فيه.

٥ - تقوى الله على كل حال تدفع الضر وتجلب النفع.

* * *